الشباب.. والتكامل في بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى مع سورة النور

«١»

من خصائص المنهج الرباني: تحويل القيم التي جاءت بها الرسالة الخاتمة إلى وجود ذاتي عملي في المجتمع، يحكم تصرفات الأفراد، ويجعل الواحد منهم ترجماناً صادقاً لهذه القيم، فتراه يطبع سلوكهم بطابعها، سواء كان التعامل مع الخالق جل وعلا، أو مع عباده، كما يجعل من ذلك المجتمع ـ في حركته وسلامة بنيته ـ صورة عملية ناطقة باسمها..

وكل أولئك في شمول يتسق مع شمول المنهج الرباني نفسه؛ فمعركة البناء المقترن بحركة الحياة تخوضها الأمة على كل صعيد وفي كل ميدان.

ومن ثمَّ، تبدو هذه الحقيقة دليلاً واضحاً على أن ما جاء به الدين الحنيف ـ كما سلفت الإشارة غير مرة ـ ليس مجموعة قضايا تجريدية يهوِّم أصحابها بفلسفتها البعيدة عن الواقع، وتستعصي على التطبيق، ولكن ما جاء به ـ وهو الدين الذي خاطب العقل والقلب جميعاً، والذي أكمله الله وارتضاه لعباده ـ: منهج كله صواب وكله حكمة؛ فهو للإنسان يسلك به طرائق السعادة والخير، ويمكنه من بناء الحياة على الوجه الذي يشيع النماء والسعادة والاستقرار في كل جانب من جوانب الحياة، ما كان متعلقاً بالفرد وما كان متعلقاً بالجماعة.

ومن الأهمية بمكان: أن نستذكر موقع الشباب في إبراز الوجود العملي لهذه الحقائق. وإذا كان عامة الصحابة في الأعم الأغلب شباباً كما هو معلوم، فإن حظَّ الشباب اليوم من ذلك: يجب أن يكون الحظ الوافر تربيةً وإعداداً كيما يكونوا ـ وهم النسغ القوي للأمة ـ على السَّنن الأول في عهد الصحابة، شباب الأمة الذين آمنوا وعملوا بما علموا وجاهدوا ونقلوا هذا الدين بأمانة إلى الأجيال.

حملني على أن أسوق هذه الكلمات المبنية عن هذه الحقيقة: تعدد مواطن الكتاب الكريم التي أشرقت بالعديد من الآيات الناطقة بها، أو الدالة عليها بصور من أساليب البيان المعجز في هذا الكتاب، وأن يكون في ذلك تذكير بما يجب من وضع الشباب المؤمن بمنهجية وحكمة على طريق العمل المجدي، والعودة إلى تحقيق الوجود الذاتي للأمة في مواجهة التحديات.

من ذلك ما تطالعنا به سورة النور ـ وهي سورة مدنية ـ من آيات كريمات ترفع من قدر رجال يتصفون بصفات توحي بالتكامل الذي نومي إليه تصوراً وسلوكاً، وهو تكامل يشرق في جنباته فقه العبودية لله تبارك وتعالى بما يجب لها من يقظة إيمانية في كل ميدان من ميادين الحياة، لتأخذ موقعها الملائم في كل حركة على صعيد البناء الذي تملي وجوده الرسالة المحمدية في شؤون الفرد بخاصة والمجتمع والأمة بعامة.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السادسة والثلاثين: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ففي تلكم البيوت التي أذن الله أن ترفعَ ويذكر فيها اسمه يسبح له جل شأنه فيها رجال يزاولون الحياة، ويسهمون في تنمية القدرة الاقتصادية للمجتمع، ولكن ذلك لا يشغلهم عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. لما أنهم ـ وهم يخوضون غمار الحياة بشتى ميادينها ـ لا ينسون الله واليوم الآخر، ـ وهذا من الثوابت الإيمانية ـ فهم يخافون سوء العقبى في ذلك اليوم الذي يبلغ من شدته أن تتقلب فيه القلوب والأبصار.

هكذا يسير العمل في الدنيا عند هؤلاء المثنيِّ عليهم من لدن رب السماوات والأرض، وفق المفهوم الشامل للطاعة الحقة لله عز وجل، وهي الطاعة التي تتحقق معها العبودية الخالصة له تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾[الذاريات:٥٦] ؛ فهي لا تنحسر عن ساحة من ساحِ الحركة الفاعلة في الحياة، الأمر الذي يؤذن بأنهم يطيعون الله جل جلاله في كل ما تعبدهم به مما رسم لهم من أحكام تنظم شؤون الدين والدنيا، وتسعد الإنسان ـ أن لو استقام على الطريقة ـ يوم توفى كل نفس ما كسبت جزاءً وفاقاً.

أرأيت إلى هذا الوضوح!! إخبار إلهي عن هذا الصنف من الناس المرضيين له سبحانه ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾النور:٣٦] يقوم عُمَّار هذه البيوت العمارة المعنوية بالتوجه إلى مولاهم بالغدو والآصال، بالتسبيح الذي يعني التنزيه المطلق لمولاهم عن كل نقص؛ كما يذكرون ربهم جل شأنه ولا ينسونه، وهذا يعني الاستمساك دائماً بأداء ما أوجب عليهم!! وتراهم يقيمون الصلاة بشرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وخشوعها، ويحافظون على أدائها على وقتها وما استحفظهم الله فيها.

وفي الوقت نفسه، لا ينسون حق المجتمع الذي أمرهم الله به وافترضه عليهم، فتراهم يؤدون زكاة المال على الوجه المطلوب، الأمر الذي يسهم إسهاماً جذرياً فيما تنشده المجتمعات من تكامل في بناها يضمن لها القوة والتماسك، وأن يكون لتبادل الود واحترام الإنسان سلطانه على التعامل في المجتمع.

إن الرغبة الصادقة عند هؤلاء الرجال المعنيين في الآية الكريمة، في تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، في ضوء منهج الحياة الرباني: كانت أقوى من الانشغال بالنعمة عن المنعم تباركت أسماؤه، والتهاون في أي حق من الحقوق؛ فهم يقدمون ـ بانشراح صدر وطمأنينة قلب ـ طاعة الله ومراده ومحبته، ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام على كل مراد لهم أو رغبة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾[آل عمران: ٣١] .

وتراهم ـ وقد ذاقوا حلاوة الإيمان بالله واليوم الآخر ـ يخافون هذا اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الهول والفزع، وما يعانيه العباد من ترقب المصير؛ ذلك بأنهم يحسُّون إحساساً إيمانياً صادقاً بالمسؤولية، ويراقبون الله تعالى ـ وهو الذي يعلم السر وأخفى ـ ظاهراً وباطناً في كل ما يأخذون وما يدعون.

وهكذا تبدو صورة التكامل حيَّة ناطقة تدعو إلى التأسي بسلوك هؤلاء الأبرار الذي جاء التعبير عنهم بقوله تعالى ـ كما سبق أن رأينا ـ: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور: ٣٧] .

إنهم مقبلون إقبالاً متجدداً على العمل لتزكية أنفسهم، وبناء الحياة بناءً يتسق تمام الاتساق مع الهدي الرباني الذي تشرق به الكلمة الطيبة [لا إله إلا الله محمد رسول الله] ، والإسهام في دفع القافلة الخيِّرة إلى الأمام ومواجهة ما يعترضها من مصاعب وعقبات؛ لما أنهم على وعي إيماني ـ يجمع إلى صفاء القلب استنارةَ العقل ـ لحقيقة أن الله تعالى تعبَّد عباده بما شرع لهم في شؤون الدنيا والآخرة جميعاً، وقد عاهدوه ـ سبحانه ـ على ذلك، وهم يستشعرون أبداً وجوب الوفاء بهذا العهد ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء:٣٤]

ثم إن هذا الذي نلمح إليه في وجازة من القول لا يحتمل المقام أكثر منها: ذو نسب إلى ما سبق أن سعدنا باصطحابه من طائفة من الآيات البينات في سورتي البقرة والقصص.

ولكم تبدو ملحةً حاجة المجتمع والأمة ـ ونحن على حال تدمى لها القلوب وتتفتت الأكباد ـ إلى جيل يحكم تصرفاته هذا السلوك الفاذُّ، ويتاح له أن يقود قافلة التحويل إلى ما هو الأفضل والأقوم من جديد.

وسبحان من لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى وهو العليم الحكيم.

* * *

البناء المتكامل.. وسلوك المؤمنين وسورة النور

«٢»

في عود إلى متابعة القول في السلوك الذي ينبىء عن التكامل في منهج البناء في ظل الرسالة الخاتمة والعمل على إعداد الشباب لذلك؛ ما بدٌّ من التذكير بما جاء في سورة النور من قول الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٦-٣٧] .

وأنت واجد في هذه المجموعة المباركة من الصفات التي ذكرها الله لهؤلاء ـ وفي مقدمتها أنهم ينزهون ربهم عما لا يليق به أوائل النهار وأواخره في تعبير يدل على الديمومة ـ صورةً تطبيقيةً عمليةً لما سبق أن دلنا عليه المعلم القرآني في سورتي البقرة والقصص ـ والأولى مدنية والثانية مكية ـ حيث جاءت الإشارة في سورة البقرة إلى أن طاعة الله كائنة فيما تعبد الله به عباده، على اتساع ساحة التعبُّد وشمولها لشؤون الدنيا والآخرة؛ لأنه هو الذي خلق وقدّر وسخَّر ما سخر من النعم ومفاتيح البناء للحياة؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

أما في سورة القصص: فقد عرض القرآن على المؤمنين ما وقع من قارون ـ الذي آتاه الله ما آتاه من الكنوز ـ من البغي والفساد في الأرض، وندَّد بصنيعه؛ لأنه نسي الله الذي أنعم عليه بما أنعم من تلك الكنوز العظيمة، ولم يرعَ حقه سبحانه

في أداء ما يجب عليه من حقوق في المال يفيد منها المجتمع، ويكون في أدائها شكرَ للمنعم سبحانه، وبعدٌ عن الفرح الذي هو عند قارون بطر وأشر، وليس فرحاً بفضل الله العظيم عليه.

كما كشفت عن تلك الموعظة البليغة التي وعظه بها صالحو قومه، والتي حملت توجيه الفئة المؤمنة إلى ما ينبغي أن تتسم به رحلة البناء من حرص على التكامل بين العمل والغاية والتحرك الصادق في إطار العبودية لله تعالى: والآيات في هذه السورة الكريمة ـ وقد سبق إيرادها ـ هي قول الله جل ذكره:﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٦- ٧٧]

وما من ريب في أن المسلك الذي كان مناط البناء عند أولئك الأخيار من المؤمنين في سورة النور: هو المسلك الذي ينبىء عن سلامة الإعداد، وبناء المسلم قلباً وعقلاً وصدق عزيمة على الوجه الذي تتحقق معه سلامة التصور، بوعي إيماني تتضح معه الرؤية، والقدرة على الاندفاع الذاتي لملء ساحات البناء مهما كلَّف ذلك من البذل، تحقيقاً لطاعة الله تعالى فيما تعبد به المسلم، مصحوباً ذلك برجاء الفوز بمرضاته سبحانه وتفضله بإحسان العاقبة يوم الدين.

ولا يرتاب منصف نيِّر البصيرة أن هذا الذي نومىء إليه: يضمن ـ بإذن الله، مع الأخذ بالأسباب المنتجة المشروعة، والسير مع سنن الله في خلقه ـ تكوين المجتمع القوي على أسس سليمة تضمن التعاون والاستقرار، وهو ما فعله رسول الله ﷺ يوم قاد عملية البناء بعد الهجرة؛ فكان المجتمع القدوة، وكانت الأمة التي أكرمها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ومن أجل ذلك ـ والله أعلم ـ سمى الله أولئك العمَّار لبيوته: رجالاً، إشعاراً بحسن نياتهم، وعلو هممهم، وصدق عزائمهم التي اقترنت بسلامة سلوكهم المتكامل في شؤون الدنيا والآخرة، وهو السلوك الذي يتطلب ذلك كله كما قال تعالى في موطن آخر من سورة مكية: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الشورى:٣٧] كما وصف أولئك الصفوة الذين صدقوا في مواطن اللقاء ابتغاء مرضاة الله وطلباً للشهادة في سبيل الله بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾﴾[الأحزاب:٢٣] .

إن الجيل الذي يجتمع له ـ بعد الإيمان ـ سلامة التصور، والاندفاع الذاتي إلى الواجب: ـ طاعةً لله تعالى ـ: هو الجيل المبتغى للأمة اليوم ذكوراً وإناثاً، لما أنه ـ إذا أتيحت له الفرصة وتخلَّى الظلمة عن الطغيان ومصادرة الحريات ـ هو الجيل المبتغى لها اليوم في عملية استئناف الطريق إلى وجود ذاتي متحرر من الإيحاء الخارجي، ذلكم بأنه هو الجيل الذي يبدو صادق النسب إلى أولئك الذين حملوا العبء بأمانة وقوة وإخلاص، ورفعوا بكفاءة نادرة القواعد السليمة لحضارة الإسلام. وصدق ربنا جل شأنه إذ يقول: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا من دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[آل عمران:١٩٥] .

* * *

obeikandl.com

البناء.. والاستجابة لدعوة الحياة
وسورة النور

«٣»

كلما أمعنت النظر فيما رسم الكتاب العزيز وبيانه من السنة المطهرة من ضوابطَ لعلاقة الإنسان بالكون والحياة، وطبيعة المهمة الملقاة على عاتقه في إطار هذه العلاقة وأنه لم يُخلق عبثاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المؤمنون:١١٥]

كلما أمعنتَ النظر في ذلك: ازددتَ يقيناً بأن المسلم ـ كما قررت الرسالةُ الخاتمة ـ ليس بمنأى عن الحياة، بل هو ـ بإيمانه الصادق وصفاء قلبه وتفتح عقله ـ مستجيب لدعوة الحياة التي حملت للإنسان سعادة الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال: ٢٤]

ولكن هذا المسلم يخوض معركة الحياة بإيمان وعلم وموضوعية منتجاً بانياً ـ على هدى ـ ضمن منهج رباني لا يغادر ساحة من ساحات العمل إلا ينيرها، ويعطي حكمه من طريق التوجيه إلى الاجتهاد وإعمال العقل، في الشؤون المتجددة، كما يعطي حكمه ـ من طريق النصوص ـ في الشؤون الثابتة، ناهيك عن ضبط التصرفات والسلوك.

ولقد أثنى الكتاب الكريم ـ كما دلنا المعلم القرآني في سورة النور ـ على أولئك الذين يعمرون المساجد ـ وجلُّهم شباب ـ بكل ما هو قربة إلى الله تعالى: بأنهم ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٧].

والمنهجية المتكاملة واضحة في هذا السلوك المثنيِّ عليه؛ فهؤلاء المؤمنون الصادقون الذين كانوا يتحركون على عتبة الشباب يواجهون الحياة ويخوضون معركة البناء بشتى

ميادينها وما يحدث فيها، ضمن مفهوم دقيق لمعنى العبودية لله عز وجل وما يقتضيه من طاعة الله تعالى فيما تعبَّد به العباد في شؤون الدنيا والآخرة جميعاً.

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، من خلال نظرة إجمالية في الآيتين اللتين يجري الإلماح إلى معناهما في السورة المشار إليها سورة النور.

والآيتان الكريمتان هما قول الله جل ذكره: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور:٣٦-٣٧].

ولقد حمل إلينا التاريخ الحضاريُّ لأمة الإسلام صوراً من التفاعل بين المسلم ـ بوصفه مسلماً ـ وبين تلكم السمات المنيرة لسلوك أولئك البررة الذين نزل في شأنهم قرآن يتلى، وهي صور تؤكد أن المنهج الرباني هو للإنسانية ـ كما أسلفنا من قريب ـ في كل زمان وفي كل مكان؛ فهو من هدي الحكيم الخبير الذي يعلم ما يصلح للإنسان في دينه ودنياه وآخرته كما خلقه هو سبحانه وسوَّاه. روى الطبري عن هشيم عن سيار قال: حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله بن مسعود: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري. وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة.

وانظر إلى هذا الذي يقوله أبو الدرداء رضي الله عنه فيما روى ابن أبي حاتم: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه أربح كل يوم ثلاثمائة دينار وأشهد الصلاة في

كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

ولا يخفى أن ظاهرة هذا التفاعل بين المسلم وبين ما تقتضيه العبودية الحقة لله عز وجل: ظاهرة لها أبعادها فيما وراء النماذج التي ذكرنا؛ فهي تسلمنا إلى الميزان الدقيق في مراحل البناء الحضاري الذي قام على كواهل أولئك البناة المؤمنين الأماثل، كما تقدم ما يسهم في الإجابة عما كان من السرعة الزمنية التي ضمنت ـ بعون الله ـ انتشار دعوة الإسلام انتشاراً باهراً، وصياغة المجتمع الجديد في ظل الواقع الجديد، وإنشاء تلك الحضارة المتميزة بعيداً عن العور والعرج ـ كما يرى في حضارة اليوم ـ التي تركت بصماتها على كل أرض استعلنت فيها الكلمة الطيبة (لاإله إلا الله محمد رسول الله).

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

البناء الحضاري.. والتكامل تربية وسلوكاً مع سورتي النور والمنافقون

«٤»

إن الذي طالعتنا به سورة النور من قول الله جل ثناؤه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٦-٣٧]. كما يدلّ على تفاعل هؤلاء الرجال المتقين مع الذي تقتضيه عبودية الله عز وجل من طاعةٍ في كل ما تعبَّد ـ سبحانه ـ به عباده المؤمنين ذكورهم وإناثهم مما يتَّسع لشؤون الدنيا والآخرة جميعاً اتساعاً يتسق مع الفطرة وسنن الله في الكون: تراه يأخذ بأيدي أبناء الأمة إلى ما يؤكد الطابع المتميز لحركة المؤمن في بناء الحياة، فهو لا يبني جانباً على حساب جانب آخر، ولكنه يأخذ المسلك المتكامل الذي يثمر البناء المتكامل الذي أنزله الله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور في مختلف الشؤون.

ذلكم ما نجده في قول الله تباركت أسماؤه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون:٩].

ومن لوازم التعبير القرآني هنا: أن المؤمنين يعيشون واقع الإنسان كما خلقه الله وكوّنه ـ وكان ذلك في أحسن تقويم ـ ويتجهون وجهة الحياة بناءً وإنماءً للطاقات الاقتصادية والبشرية؛ فلديهم أموال يجمعونها من الطرق التي أحلّ الله، وتراهم على السنة التي تركهم عليها رسول الله فهم يتزوجون فيتوالدون ويتكاثرون.

ولكن الأموال والأولاد ـ وهي من زينة الحياة الدنيا ـ لا يجوز مهما كان شأنها، أن تلهيهم فتصرفَهم عن وجهة الحق في طاعة الله تعالى.

ومن أجل ذلك جاء النهي صريحاً عن ذلك في هذه الآية الكريمة فقال جل شأنه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وذكر الله هنا ـ والله أعلم ـ ذو مدلول أعمَ وأشمل من الذكر باللسان فحسب؛ فهو إلى جانب ذلك: ذكر الله بالتعرف إلى حكمه في كل تصرف يتصرفه المؤمن وعنده وهو يزاول شؤون الحياة ويمارس عملية البناء في ميدانه الذي أقامه الله فيه.

وبذلك يكون وقَّافاً عند حدود الله؛ لا يفقده حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه.

وعندها ترى عجلة التقدم المضطرد تسير بفاعلية وحكمة، مصحوبة بالأيدي القوية الأمينة التي تنتج وتنمي، والعقل المستنير يضع الأمور مواضعها، والقلب تخالطه بشاشة الإيمان، فيجعل من صاحبه صورة أمينة للقيم التي يحملها بين جنبيه على نور الهدي الرباني في كتاب الله والسنة النبوية المطهرة.

من هنا جاء الخطاب القرآني بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بالقاعدة التي ينبني عليها التكليف، فهذا النداء العلوي الذي يأخذ طريقه إلى الأعماق من نفس المؤمن في قلبه وعقله، يوحي بأن من مقتضيات الإيمان أن لا يضعف المؤمن عن حسن الامتثال، فتلهيه الأموال والأولاد عن ذكر الله.. عن التذكر واليقظة الدائمة، وعليه أن يخوض معركة الحياة، ويسهم في ملء ميادينها بالنافع المثمر الذي يعود عليه بمرضاة الله تعالى، ويعود على المجتمع بالخير والنماء، الأمر الذي يرفد طريق الأمة بالكثير من القوة والعزة الإيمانية، وسلامة الكيان الذاتي، دونما عدوان على المنهج الذي يفترض ـ تلقائياً ـ أن يحكم التصرفات والسلوك.

والملاحظ أن الآية ختمت بقوله تعالى:﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾حيث يعود اسم الإشارة في «ذلك» على التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله.

وما أعظمه تنبيهاً على أن الربح الحقيقي ليس في جمع المال والاستمتاع بنعمة الأولاد، مع نسيان الخالق المنعم جل شأنه، والتهاون في أداء الحقوق، ولكنه استشعار طاعة الله في ذلك كله، وأداء ما أوجب الله في هذين الشأنين من حقوق، ووضع المال وتوظيفه ـ بعد كسبه من حِلِّه ـ في طرائق النماء الاقتصادي المشروع الذي يعود على الفرد والجماعة برفع المستوى ومسببات النماء والخير.

والعدول عن ذلك خسارة أي خسارة،﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾في الدنيا والآخرة.

ذلكم هو المعيار الذي يمتحن المؤمن بالتزامه والأخذ به عن رضاً وانشراح صدر وهو يكدح في هذه الحياة، كيلا تضيع جهوده سدىً يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وهكذا يبدو الفارق الأساسي بين مسار الحضارة الإسلامية وبين مسارات الحضارات الأخرى؛ ففي الحضارة الإسلامية، يبني الفرد على أسس تتكامل معها شخصيته وتصوراته على صعيدي الدنيا والآخرة، ويندفع إلى العمل بحوافز إيمانية تثمر البناء الحضاري المتكامل، دونما عرج أو عور، حيث لا ينمو جانب على حساب جانب آخر.

فتش عن الحقيقة. وفتش عن سعادة الإنسان.. فهل أنت واجد في الحضارة العرجاء شيئاً من الإنصاف والمطابقة بين الدعاوى والتطبيق؟

إن الأمة التي تكتوي بنار ذاك الانحراف الذي يمارسه الأقوياء أهل الحضارة العرجاء، مسؤولة عن مراجعة رصيدها الإيماني والتاريخي والعودة الصادقة إلى منهج الله تبنى في ظله ذاتها من جديد، وتعيد الحق إلى نصابه هنا وهناك، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وتتنفس الإنسانية كلها الصعداء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

التكامل في البناء..
وعطاء القرآن في التربية والسلوك
النور.. والمنافقون

«٥»

في ضوء ما وقفنا عليه المعلم القرآني فيما أسلفنا من القول في شأن التكامل الذي يتطلبه المنهج الرباني على صعيد البناء للفرد والجماعة كيما يكون نسغ الفرد قوياً ـ وأكثر ما يظهر ذلك في الشباب ـ كيما يرتفع إلى مستوى أن يكون ركيزة مهمة في بنية الجماعة ـ على تعدُّد البنى في المجتمع وتنوعها.. في ضوء ذلك، يبدو النسب واضحاً بين ما جاء في سورة النور بدءاً من قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور:٣٦-٣٧] ، وبين قوله جل ذكره في الآية العاشرة من سورة المنافقون: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾[المنافقون:٩-١٠].

ففي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ.... ﴾نهي واضح عن الوقوع في هذا الانفصام بين مقتضى الإيمان، وبين سلطان الأموال والأولاد على النفوس، ودعوة صريحة إلى النهج المتكامل الذي يذكرنا بتلك الموعظة التي رأينا من قبل في سورة القصص على لسان الصالحين من قوم قارون وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ من قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٦-٧٧].

والنهي الذي نراه في الآية السالفة الذكر من سورة «المنافقون»: وجدنا صورته العملية في سلوك أولئك الذين ذكرهم الله بوصف الرجولة، وأثنى عليهم ثناءً عظيماً بقوله تباركت أسماؤه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾... الآية.

ولئن ختم قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾حيث الوعيد الشديد بالخسران، وهو وعيد شديد مرعب يخشاه المؤمن الذي يتطلع أبداً إلى العاقبة الحسنة يوم الدين؛ لأن في الكلام نوعاً من الحصر، بجعل الخاسرين الحقيقيين الذين يعني خسرانهم ما يعني! هم أولئك الذين يخالفون عما نهى الله عن وقوعه وذلك بقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمؤمن يبتغي عند الله الربح الذي يمليه المعيار الحكيم، ويخشى تلك الخسارة المحققة والعياذ بالله..

أقول: لئن ختمت الآية بهذا الوعيد! إن الآيات التي حملت الثناء العاطر على أولئك المتقين المحسنين من أهل الإيمان في سورة النور: ختمت ببشارة عظيمة نقع عليها في قول الحكيم الخبير الذي خزائنه ملأى لا تغيضها النفقة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٨].

فبجانب ما يكون لهم من الخير والتمكين في الدنيا تمكيناً يسعف في نشر الدعوة المحمدية، وأن تكون كلمة الله هي العليا: يكرمهم الله يوم القيامة، بأن يتقبل حسناتهم بقبول حسن ويتجاوز عن سيئاتهم. وأكثر من هذا ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يتقبل منهم الحسن من العمل ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام :١٦٠] وكما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وما من ريب في أن فوزهم بالجنة، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويرزقون فيها بغير حساب، مع إحلال الرضوان الأكبر عليهم!! كل أولئك من عطاء الله وفضله، وهو ـ جل شأنه ـ ذو الفضل العظيم.

وروى الطبراني بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠] قال: «**أجورهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع المعروف في الدنيا**».

ومهما يكن من أمر: فإن النظرة المتدبرة إلى تلكم الآيات، وما تحمل من ترتيب النتائج على المقدمات في ظل ما ينبغي من التكامل والبعد عن التناقض بين القول والفعل.. تسلمنا إلى أن نقدر حق القدر ما تحمله من عطاء في إنشاء الحوافز الذاتية من داخل النفس، تلك التي تجعل من حركة المؤمن على نور من الله: طاقة هائلة على طريق البناء المتكامل المتوازن على هدىً من الله في منهجه الرباني الذي أراد للمؤمن أن يبني ـ من خلاله ـ فيحسن البناء، ونمَّى في حسِّه سلامة التصور كما هو مقتضى العبودية له تبارك وتعالى، في ساح متسعة الأرجاء لحركة الحياة، بكل ما تتناوله تلك الحركة من شؤون، وما تهدف إليه من غايات!!

والنظرة المتدبرة المشار إليها: ضرورة ملحة، لا بد من أن تأخذ حجمها اللائق في مناهج البناء والإعداد، وطوبى لمن عمل فأحسن العمل، وبنى فأجاد البناء.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الشباب.. تكامل البناء وسلامة المعايير
البقرة.. المنافقون

«٦»

من مظاهر الأسلوب الحكيم في معالم الكتاب الكريم الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ ولم يجعل له عوجاً، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: ما يلحظ الناظر المتدبر لآي هذا الكتاب: من العناية الفائقة بتربية المؤمن ـ وهو يستخدم عقله ويأخذ بالأسباب ـ على أمر غايةٍ في الأهمية، وهو أن المعيار الحقيقي السليم للقيم، والحكم بما هو ربح وما هو خسران، وما هو خير وما هو شر: هو المعيار الذي جاءت به الآيات الكريمات عن الله عز وجل، وبيَّن ملامحه رسول الله عليه الصلاة والسلام في هديه وسيرته المباركة الميمونة.

ولا يخفى على أهل البصائر الذين يمارسون عملية البناء على صعيد الفرد والمجتمع ويعنون بإعداد الشباب: أن ذلك مما يطبع سلوك المؤمن ذكراً كان أو أنثى ـ وهو يمارس الحياة، ويعمر الأرض، ويبني الحضارة، ويكدح للكسب والانتفاع بما أسبغ الله من نِعم ـ بطابع الإيجابية الفاعلة، والبعد عن الفوضى في تصريف الأمور، وعن التناقض بين المعتقد وبين الواقع الذي تنشئه الحركة والممارسة!

ففي قضية من كبريات قضايا هذا الدين لأنها ذروة سنامه ـ وهي الجهاد، كما بين عليه الصلاة والسلام ـ جاء القرآن ليكشف عن أن المعيار الصادق للحكم على أن القتال الذي شرعه الله وكتبه على المسلمين خير لهم أو شر؟ هو ما يكون من عند الله عز وجل نصرةً للحقّ؛ لأن الله هو العليم بما هو صالح للفرد والجماعة والأمة، وطريق تمكينها في الأرض تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وأن تكون ـ وهي تحمل رسالة الخير للناس أجمعين ـ صاحبة الكلمة المسموعة فيما تريد من نصرة الحق وأهله، والعمل على تحقيق إنسانية الإنسان، وتسييره في الطريق التي تؤول به إلى سعادة الدارين..

وليس المعيار أن يكون الأمر لدى معظم الناس مكروهاً، حتى يكون شراً لهم، أو محبوباً حتى يكون خيراً لهم؛ فمرد العلم بحقيقة ذلك إلى الله العليم الخبير الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً؛ ذلكم قوله جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة: ٢١٦] .

إن كره القتال في سبيل الله جنوحاً إلى العافية، وخوفاً من الموت: يسلم الأمة إلى الضعف والكثير من المذلَّة والهوان، ويسلِّط عليها أعداؤها الذين هم أعداء الحق والإنسان ولا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة!!

أما القتال امتثالاً لأمر الله كيما تكون كلمته ـ جل شأنه ـ هي العليا في مواجهة أعداءِ الحقّ المتربصين، وأن يكون لدعوة الله التي هي دعوة الحياة، وينبوع السعادة والفلاح في كل الميادين الفاعلة بلا استثناء، سلطانها في الأرض؛ عقيدة، وشريعة ومنهج وسلوك، ناهيك عما يكون للأمة من يُسر الدعوة إلى الله، والمنعة الحقيقية وإرهاب أعداء الله وأعدائها: فلا خير للبشرية إلا به ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج: ٤٠] .

فالتضحية التي تعقب الحياة الكريمة للأمة، وتسلمها ـ بعون الله ـ إلى أن يكون لها وجودها الذاتي: أين منها كراهية الموت وقبض الأيدي عن الإنفاق في سبيل الله، الأمر الذي يعقب ضعف الأمة ووقوعها في حمأة الذل والهوان!

وقد أذن الله بالتحديد المشار إليه وفق المعيار الحكيم الذي لا يعول ولا يطرقه الاحتمال؛ لأن علمه تعالى هو العلم المحيط، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

ولذلك جاء تعليل ما هو في حقيقته خير وإن كُره، وما هو في حقيقته شرٌّ وإن أحب، بقوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦] .

وإذن فمن الضرورة بمكان، أن يأخذ التسليم للمعايير التي يطرحها الكتاب الكريم مكانه في البنية الثقافية لدى الفرد والمجتمع، والذين أنشؤوا الواقع السليم والمجتمع القدوة في الماضي، وأسهموا أيَّما إسهام في رفع قواعد الحضارة المثلى حضارة الإسلام، وصياغة تاريخ هذه الأمة؛ هم أولئك الذين أحكم بناؤهم وفق المنهج الرباني في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك التزام المعايير المشار إليها، بالكثير من الطمأنينة وانشراح الصدور بعيداً عن الحرج والضيق!!

وعلى هذا السنن نذكر مرةً أخرى ما وقفنا عليه المعلم القرآني في الآية العاشرة من سورة «المنافقون» وهي قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون:٩] .

إن معيار الربح أو الخسران قد يلجأ إليه في حالة من حالات الضعف، فتنقبض الأيدي عن العطاء، وتشغل أموال الإنسان وأولاده قلبَه عن ذكر الله الذي يجب أن يصحبه في كل ما يأخذ وما يذر، أو لسانه فلا يلهج بتنزيه مولاه وتعظيمه وشكره؛ ولكن القرآن يكشف عن أن الوقوع فيما نهى الله عنه في هذا الباب هو الخسران المبين.

فإذا كان من تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله يحسبون أنهم رابحون، فليعلموا أنهم ـ على الحقيقة ـ هم الخاسرون؛ ذلكم بأن تحقيق الخير للإنسان في دنياه وآخرته كائن بمقدار الالتزام بتلكم القيم التي تجعل من النعمة في المال والولد طريقاً لشكر المنعم سبحانه، ووسيلة ناجحة للإسهام فيما يعود بالخير على الفرد والجماعة!!

وما من ريب في أن التربية على الطمأنينة بما جاء عن الله ورسوله في تحديد القيم وتقويم الأقوال والأفعال، عنوان فلاح، يوحي بإذن الله بأن اليقظة التي نلمح تباشيرها في الأمة ـ وبخاصة في جيل الشباب ـ لا بد أن تؤتي ثمارها استمراراً وقدرة على العطاء، وإيجابية في الحركة الواعية على صعيد البناء والنماء، والله تبارك وتعالى هو الحق، ووعده من ينصره بالنصر حق، وهو يتولى الصالحين.

obeikandl.com

الشباب تكامل البناء وسلامة التربية والإعداد
المعايير السليمة والسلوك المطلوب
البقرة.. المنافقون

«٧»

لعل مما يكون إفادة على إفادة، وعطاءً خيِّراً على عطاء مثله ـ إن شاء الله ـ أن نتابع الرحلة مع المعلم القرآني على ساحة الإحكام لبناء الفرد على القيم التي يشرق بها المنهج الرباني؛ وذلك في واحد من النماذج التي تطالعنا في سورتي «البقرة» و«المنافقون».

وهو نموذج قائم على ما دلَّت عليه الآيات ـ فيما دلت ـ من أن المعيار الصادق الذي سداه ولحمته الصواب في الحكم بالربح أو الخسران، والخيرية أو عكسها للمؤمن، في أمر من الأمور ـ كائناً ما كان شأنه ـ هو المعيار الذي يأتي عن الشارع الحكيم في الكتاب الكريم، أو السنة المطهرة، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى الأقوياء الأمناء.

وكم يحسن المؤتمنون على التربية والإعداد صنعاً إذا أولوا هذه القضية الكبرى ما هي جديرة به من العناية، وما أجدر الشباب بأن يتحقق من إعدادهم ما تأمله الأمة من الخير.

والآيات الكريمات التي نسعد باستئناف الرحلة معها هي قول الله جل شأنه في سورة «المنافقون»: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية وقوله في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ...﴾ الآية.

ففي الآية المشار إليها من خواتم سورة «المنافقون» نهي صريح جازم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين عن أن يأخذهم حب المال أو الولد أو كليهما، فينسيهم ذكر الله؛ فلا يلهجون بما أمر به المؤمن من الذكر في الأحوال جميعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)** ﴾[الأحزاب] وقوله: ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)** ﴾[الأنفال].

وليس هذا فحسب: بل لا يذكرون أحكامه فيقعون في هاوية المخالفة عن أمر الله ونهيه في شؤون الحلال والحرام والشبهات، فيجمعون المال ـ على سبيل المثال ـ من حله ومن غير حلِّه، ولا يؤدون حق الله فيه، ولا ينفقون من هذا المال في سبيله سبحانه؛ وبذلك يقعون في الأولى على أم رأسهم في مخالفة قوله ﷺ: «**إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به**» أخرجه الترمذي من رواية كعب بن عجرة رضي الله عنه. ولفظه عند أحمد: «**إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت النارُ أولى به**» ويقعون في الثانية كذلك في هاوية المخالفة عن أمر الله في قوله: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)** ﴾.

هذه واحدة، وأما الثانية: فالمخالفة عن المعيار الحقيقي كثيراً ما تظهر آثارها فيما يرى من أن التدلُّه بالأولاد يضعف عن أن يؤخذوا بالتربية الناجعة النافعة التي تضع العاطفة موضعها والحزم الموجَّه موضعَه، ويُعَدُّوا لأن يكونوا لبنات خيِّرة في مجتمع سليم نظيف تحكمه شريعة الإسلام.

وإذا وقعت المخالفة عن منهج التربية السليمة في نسيانٍ لوضع الأولاد موضع المخالطة الحقة للدين القويم عقيدة وشريعة وأخلاقاً، بسبب من الاستغراق العاطفي الذي ينسي ذكر الله: فقد يتسبب لهم الوالدان ـ مع التعثر في الدنيا ـ بسوء العاقبة في الآخرة من حيث يشعران أو لا يشعران؛ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)** ﴾[التحريم: ٦].

وفي عود على بدء: لا بد من التذكير بأن الآية التي جرى الإلماح إليها في سورة «المنافقون» ختمت بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني الوقوع في التلهي بالأموال والأولاد الذي يستغرق صاحبه عن ذكر الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ عند الله في الدنيا والآخرة.

والملاحظ أن ذلك كائن بناءً على القيمة التي حدَّدها الشارع لما هو ربح وما هو خسران، لا على القيمة التي تنتجها الغفلة والإعراض عن ذكر الله بشتى ما يطلب من المؤمن من أنواع هذا الذكر الذي هو خير كلُّه، سواء كان ذكراً لسانياً أو قلبياً، أو تذكراً لأحكام الله عند كل حركة في حياة الإنسان وهو يكدح إلى الوصول إلى ما يريد.

وهكذا ترى أن عطاء الآية الكريمة يشمل أموراً عدة، وجَّه الكتاب الكريم إلى ضرورة أن يبنى الفرد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على إدراكها، والعمل على أن تأخذ موقعها في الحكم على التصرفات.

ولذلك ما له من أثر على كلٍ من البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها..

فمن مقتضيات الإيمان: أن يحذر المؤمن ـ وهو يخوض غمار الحياة ـ أن يقع أسيراً للغفلة عن الله عز وجل، نتيجة الاستغراق في الاستمتاع بالأموال والأولاد الاستغراق المُنسي.. ويقاس مع ذلك كل ما هو من المتع في هذه الدار.

صحيح أن الإنسان مفطور على حب المال والولد، ولكن المسلم ينتمي إلى رسالة هي نور من ذلك النور الإلهي، عليه أن يلتزم حدود ذلك الانتماء إليها. وإنها لرسالة ربانية ـ من لدن الخالق رازق النعم ـ تنشىء الحوافز التي تصبغ مسيرته بصبغة التكامل ـ أن لو كان معها وانتصر على الغفلة التي تلهي عن الحق ـ كالذي رأينا في سورة «النور» من الثناء على أولئك الرجال الذين استعلوا بهممهم العالية وعزائمهم الصادقة على تلك الغفلة بأنواعها، وذلك بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور:٣٦-٣٧].

ثم إن المؤمنين ـ بعلو هممهم على طريق الحق، وصدق نياتهم وعزائمهم، مدعوون إلى نشدان الربح الحقيقي، كما هو في معايير الشارع الحكيم، وهو العليم بما يصلح عباده، ويسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ وذلك بالاستقامة وتجاوز المعوقات، وعدم السماح للعاطفة الموقوتة في ظل المتاع الفاني في هذه الحياة أن تتجاوز مقتضيات الفطرة إلى نسيان الله واليوم الآخر، آخذة بصاحبها إلى حيث الطغيان على الهدف الكبير الذي هو ابتغاء مرضاة الله، وإنشاء الوقاية الخيِّرة التي تقي غضبه وعقابه سبحانه وتعالى..

والجنوح عن ذلك: وقوع في الخسارة المخزية لا محالة ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾** ﴾.

وبعد: فما بدٌّ من الإشارة إلى أن الآية التي نَسعد باستذكارها مرة أخرى من سورة «المنافقون» والتي ختمت بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾** ﴾ قد تلاها ما يحمل الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، قبل أن يدعو داعي الموت، وتفوت الفرصة، وعندها لا ينفع المقصِّرَ رجاء مولاه التأخيرَ لإصلاح ما فسد، وتلافي ما وقع من التقصير؛ لأن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وقبل هذا وبعده لا بد من تذكر أن الله تعالى خبير بما يعمل عباده لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾** ﴾.

إنه لأمر بالغ الأهمية مضموم إليه الحثُّ على المسارعة، وعدم الانصراف عن الخير واللجوءِ إلى المطلب المستحيل، بعد نهي بالغ الأهمية يمهِّد تمهيداً فاعلاً لتحقيق العمل بهذا الأمر. والموفق من أدركته العناية فانشرح صدره للوقوف عند أمر الله ونهيه في أحواله كافة.

هكذا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

ألا ما أعظمه درساً في التربية والتزكية يذكّر بما قاله أهل السلوك من التحلية بعد التخلية!!

وفي خاتمة المطاف: إذا اتجهنا من خلال ما تبدى من عطاء المعلم القرآني في بناء لبنات الأمة: شطر الواقع: ندرك أيَّ واجبات تنتظر ـ على المدى ـ أولئك المؤتمنين على بناء الشخصية المسلمة، ومن ورائها المجتمع المسلم في هذا الخضم من الأفكار والمعايير، وهي واجبات ترتبط أيَّما ارتباط بالبنية الحقيقة للأجيال التي صنعت التاريخ، يوم ولَّت وجوهها شطر البناء المتكامل وعمارة الأرض وإنشاء ذاتية الأمة، وهي على ذكر من المعايير الحقيقية للنصر والخذلان، والربح والخسران، وما هو خير وما هو شر، ثم ما هي حدود الموالاة والمعاداة، وأثمرت وجهتهم ما أثمرت من الخير لا لأمتنا فحسب، بل للإنسانية جمعاء.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

المؤمنون هنا.. والمنافقون
الصواب المطلوب وسورة المنافقون

«٨»

قال المجربون: وبضدها تتميز الأشياء، أذكرني ذلك ما اشتملت عليه سورة «المنافقون» من تسديد لطريق المؤمنين تسديداً يباعد بينهم وبين الغفلة التي تنسي المرء ذكر الله؛ لأن هذا النسيان يعني الأخذ بطريق التردي في مهواة الخسران الحقيقي، مع أن المطلوب من أهل الإيمان والتقوى ـ وهم يزاولون عملية البناء القدوة ـ أن يكونوا وقافين ظاهراً وباطناً عند الذي يجلب لهم الربح عند الله، وهو ـ سبحانه ـ العليم بما هو ربح وما هو خسران، وما على المؤمنين إلا السمع والطاعة!!

ومع هذا التسديد لطريق المؤمنين، اشتملت هذه السورة المباركة على التنديد بموقف المنافقين من الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا، وهو موقف يدل على ما أصاب قلوبهم من المرض والعياذ بالله.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا علينا أن نستأنف تلك الصحبة الميمونة لعطاء المعلم القرآني فيها بدءاً من الآية العاشرة وهي قول الله جل وعز: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾** ﴾ [المنافقون:٩].

فأنت واجد نهي المؤمنين نهياً جازماً ـ بعبارة النص ـ عن التردي في مهواة الخسران في ميزان الله، وذلك بالتلهي بالأموال والأولاد عن ذكره سبحانه ـ بما للذكر من معانٍ وأبعاد ـ فالذين يقعون في هذه المهواة هم الخاسرون، ومفهوم ذلك أن الذين يعافَون من هذا السقوط هم الرابحون.

فمقياس الربح والخسران منوط بقدر ما يكون عليه المؤمن ـ وهو يعمل على تحقيق ما ترمي إليه الرسالة الخاتمة في نفسه وفي المجتمع ـ من يقظة إيمانية والتزام بشرعة الحكيم الخبير جل جلاله، والبعد عن الغفلة التي قد توقعه في التجاوز، وتسلمه إلى سوء العاقبة لا قدَّر الله!!

وفي نظرة متدبرة إلى ما أشرقت مع هذه السورة «سورة المنافقون» من العطاء يبدو لزاماً مع التنبه إلى هذا الإرشاد الباني للمؤمنين على هذه الساحة ـ ساحة التوفيق بين العاطفة الفطرية نحو الأولاد، وحب المال ـ وبين اليقظة والحذر من التلهي بذلك عن ذكر الله ـ يبدو لزاماً الوقوفُ المتأني عند الذي جاء في ثناياها من التنديد بصنيع المنافقين ـ على وجه العموم ـ وانحرافهم المقيت في أمر الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ من المهاجرين عليهم الرضوان على وجه الخصوص، وفي ذلك ما فيه من عدوان على ما ينبغي من التعاون المالي، وإحكام البنية الاقتصادية للمجتمع، ناهيك عما فيه من دلالة على العلاقة القوية بين الكفر المبطَّن عند المنافق وبين تصرفاته في المجتمع على كل صعيد!!

فقد ذكر الله تعالى ـ فيما ذكر من قبائحهم وعرّى من مواقفهم ـ أنهم ينهى بعضهم بعضاً عن المشاركة في الإنفاق على من هم من عيون الصفوة من أبناء المجتمع وهم المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة لله ولرسوله تاركين الأهل والدار والمال والمتاع؛ وهو نهي يقتضي الانحسار عن التعاون على إقامة البنية السليمة ـ اقتصادياً ـ للمجتمع الوليد في مهاجر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فضلاً عما فيه من معاداة للحق وأهله.

ولم يكن خافياً أن هؤلاء المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون: كان من أهدافهم في التناهي عن الإنفاق على من عند الرسول الكريم، والتعاون على التخفيف عنهم في واقعهم المالي: أن يتفرقوا، وينفضوا، كيما يتزلزل كيان المسلمين، فهم يستخدمون هذا الخلق الذميم سلاحاً في مواجهة الحق وأهله.

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ أي حتى يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك ما فيه من إضعاف الجماعة المؤمنة ـ كما يتصور هؤلاء الصادُّون عن سبيل الله أحلافُ اليهود والمشركين، وتزلزل كيان المسلمين!

ولكن غفلوا عن أن الرزق بيد الله؛ فهو رازق من عند رسول الله من المهاجرين وسواهم، وهو المعطي سبحانه؛ فله خزائن السماوات والأرض، ولكن المنافقين المضروب على قلوبهم بالأسداد: لا يفقهون ـ لما ران على قلوبهم من الغفلة ـ ما فيه صلاح أنفسهم، وسلامة عاقبتهم عند رب العالمين!

وقد جاء هذا صريحاً في الرد على الموقف النفاقي المَهين حيث قال تعالى في ختام الآية السالفة:﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾[المنافقون:٧]

ها هم أولاء يجترحون من المساءة التي تتنافى حتى مع أخلاق العربي قبل الإسلام، وهم يحسبون أنهم على شيء، والحقيقة أنهم غارقون في الجهالة وعدم الفهم، ولو تجردوا عن الهوى والخضوع لنفثات اليهود، لآمنوا برسول الله ﷺ حق الإيمان، وأسهموا في بناء مجتمع لا تثقله رواسب الجاهلية الأولى، ولا تطغى على جوانبه الاقتصادية والثقافية والسياسية موارد لا تمت إلى الحق بصلة.

هذا: ويبدو أن الارتباط قائم ـ والله أعلم ـ بين ما ذكر الله عن هؤلاء المنافقين في شأن المال والإنفاق الخيِّر المطلوب، وبين توجيه المؤمنين إلى أن يضعوا الأمور مواضعها؛ فهم ـ بحمد الله ـ يطرقون أبواب الحياة بأيدٍ إيمانية قوية، ويكدحون على أرض البناء الشامل للفرد والجماعة وفق منهج رباني مرسوم حدّد المعايير والقيم.

ومقتضى الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب، والوعي لأبعاد الرسالة التي نذروا أنفسهم لها: أن يلتزموا بتلك المعايير والقيم، وإلا وقعوا فيما هو شبيه بما وقع فيه المنافقون، ولكن عن غير عمد؛ من أجل ذلك حذَّرهم الله مغبَّة موبقة قد تكون طريقاً لذلك ـ لا سمح الله ـ وهي الغفلة الناشئة عن الاستغراق في الاستمتاع

بالأموال والأولاد استغراقاً يلهي عن ذكر الله، وما يجب من إخلاص الوجهة له ـ جل شأنه ـ وإعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأمور مواضعها كما تقتضيه شريعة الإسلام وآداب الإسلام.

فالمنافقون يتعمدون الهدم وتقويض كيان المجتمع المسلم، والغافلون يؤذون أنفسهم وأولادهم، ويعطلون طاقات يفترض أن يفيد منها الفرد والجماعة، وأن تكون روافد خير على طريق البناء المرتجى والإنماء المتجدد للطاقات والفاعليات والثمرات!

على أن مما ينير السبيل أكثر وأكثر في هذه القضية بالغة الأهمية: أن القرآن الكريم لم يدع أن يكشف الغطاء عن شأن المنافقين والمنافقات بوصفهم منافقين ومنافقات، فأنبأ ـ وهو العليم بذات الصدور عن سلوكهم المنحرف في شتى الشُّعب الأساسية ـ ومنها الإنفاق في سبيل الله ـ وأن يتفضل كذلك، بكشف الغطاء عن شأن المؤمنين والمؤمنات، بوصفهم مؤمنين ومؤمنات. فأنبأ عن سلوك أحبائه المؤمنين في شتى تلك الشعب أيضاً ومنها الإنفاق في سبيل الله.

وفي ذلك ما فيه من قطع الطريق بهذا البيان المحكم، على كل الأعذار المصطنعة، والتعللات الفاسدة عند أهل النفاق، خصوصاً إذا لاحظنا ما توعَّدهم الله به من نار جهنم يخلدون فيها مصحوبين باللعنات ولهم عذاب مقيم.

ولا كذلك ما وعد به أهلَ الحق المؤمنين، من الرحمة الغامرة في الدنيا والآخرة حيث الخلود في جنات النعيم، والمساكن الطيبة، والرضوان الأكبر من الله وذلك هو الفوز العظيم. ذلكم قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾** ﴾. وقوله سبحانه: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾** ﴾.

وضوح الرؤية سلامة البناء..
والمنافقون والسلوك المطلوب
سورة المنافقون

«٩»

كان من عطاء المعلم القرآني في سورة «المنافقون» ما جرت الإشارة إليه فيما سلف قريباً: من أن هنالك ارتباطاً بين الإشارة إلى واحدة من قبائح المنافقين ـ وما أكثرها ـ وهي دعوة بعضهم بعضاً إلى عدم المشاركة في الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ حتى يتفرقوا عنه، وبذلك يتحقق لهم متمناهم من إضعاف شوكة المؤمنين! وهو ما أبان عنه قول الله تعالى في السورة المومى إليها ـ وهي سورة مدنية ـ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾[المنافقون :٧] وبين ما كان من توجيه المؤمنين ـ وهم يواجهون أعباء البناء وفق الرسالة الخاتمة التي هم بها مؤمنون ـ إلى اليقظة الدائمة في إحلال كل أمر محلَّه اللائق به، وعدم الوقوع في أسر الغفلة عن الله واليوم الآخر من طريق التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله ـ بمعناه الأعم الشامل ـ؛ لأن الخاسرين هم الذين تضعفهم عواطفهم ورغباتهم عن أخذ الكتاب الهادي بقوة، فيقعون فريسة ذلك التلهي، ويصدق فيهم أنهم أسارى الغفلة عن مولاهم سبحانه وتعالى في ذكره الدائم تسبيحاً وتمجيداً وشكراً متجدداً لنعمائه بالوقوف عند حدوده برضىً وتسليم وانتفاء أي حرج في النفوس! والبرهان على ذلك الإنفاق في سبيل الله وعدم التواني والتأخير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .... ﴾الآية.

والارتباط الذي نشير إليه كائن في ملاحظة المسلكين جميعاً مسلك البناء ومسلك الهدم.

فالمؤمنون ـ وهم على المحجة البيضاء ـ مطلوب منهم أن يكونوا على تمام اليقظة؛ فلا يقعوا فيما هو مخالفة عن طبيعة البناء المطلوب إحكامه على قواعد الهداية والحق، من حشد الطاقات، وتسييرها في قنواتها المنتجة، وتنمية أواصر الجماعة، والسير بالمجتمع المسلم إلى مراقي الفلاح والازدهار في إطار من تحقيق إنسانية الإنسان وحرية الإنسان.

أما المنافقون: فهم لا يفتؤون يعملون جاهدين ـ بوحي من ظلام قلوبهم ـ لتقطيع الأواصر، وزعزعة كيان الجماعة المسلمة، والسير بالمجتمع المسلم ـ أن لو استطاعوا ـ نحو التفكك والانهيار!!

فإذا غفلت الفئة المؤمنة عن الله، وحادت ـ في لحظة من لحظات الضعف ـ عن الصراط السوي فيما يقتضيه رفع القواعد السليمة للبناء الجادِّ، والبذل في سبيل ذلك، فقد أعانت المنافقين من حيث لا تشعر، على ما يهدفون إليه، ويعملون على تحقيقه هدماً وتخريباً وصدّاً عن سبيل الله والحق، وفق ما يبطنون ـ والعياذ بالله ـ من ظلام الكفر الذي أخرب قلوبهم والعياذ بالله؛ فراحوا يضربون ـ متجاوزين أبسط ما يقتضيه الخلق العربي ـ في كل ميدان من ميادين الضلال، ومنها الصدُّ عن التعاون الاقتصادي، والإنفاق على من يستحقون الإنفاق.

لذا جاء التحذير من الوقوع في هذه الحمأة، والتنبيه على تمام الانضباط بضوابط الكتاب والسنة في تحديد ما هو ربح وما هو خسران، حيث يتبين بوضوح أن الوقوع فيما نهى الله عنه في شأن العلاقة بالأموال والأولاد، هو الخسران، والواقعون فيه هم الخاسرون!

ولعلَّ مما يؤكد الأهمية الكامنة من وراء هذا التحذير: أن قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩﴾﴾الآية، تبعه ـ كما أسلفنا من قبل ـ قوله جل شأنه: ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ....**﴾.الآيتان.

أرأيت! المنافقون يرمون إلى تفريق الجماعة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويقول بعضهم لبعض: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، مع علمهم أن هؤلاء المهاجرين كان تركهم للأهل والمال والمتاع في مكة عند الهجرة إلى الله ورسوله مدعاة لكثير من التوقير والتقدير، وعندما يعانون بتسيير العيش الكريم ـ وهو ما فعله إخوانهم الأنصار ـ فذلك برهان الإيمان الصادق، والحرص على دفع قافلة الإيمان إلى حيث القوة والتمكين.. ولكن هؤلاء الضالين ليسوا ـ حتى من الخلق ـ في شيء.

والمؤمنون: ـ وهم دعاة الخير، والمنوط بهم إقامة البنية الحضارية السليمة ـ يُنهون عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله الذي يعني الإحسان في القيام بما يجب على المؤمن أن يكون عليه، وقد اختاره الله للجلَّى، وسلك به سبيل التمكين في الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.

أجل ينهون عن ذلك، ويؤمرون من بعده بتوظيف المال ـ وهو مال الله وهم مؤتمنون عليه ـ في طرقه المشروعة المرضيَّة، والإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبياً من أنفسهم، بعيداً عن المن والأذى، والتعاون مع إخوانهم على البر والتقوى، والإسهام في رقي المجتمع المسلم، بتقوية أبنائه وإحكام لبناته، وتنمية الطاقات الاقتصادية والاجتماعية فيه، صورةً عن صدق الإيمان، وحسن النية، والحرص على أن يكونوا مع الله ـ أبداً ـ ذاكرين شاكرين.

ومهما يكن من أمر: فإن الحقيقة التي لا معدى عنها: هي نفي التناقض بين العلاقة الحميمة الفطرية بين الوالدين وأولادهم وعلاقة الإنسان بالمال وقد فطر على حبه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[العاديات:٨] وبين الارتفاع إلى مستوىً من اليقظة الإيمانية، تحول دون ذلك ودون أن لا يتقاصر المؤمن عن ذكر الله والإنفاق في سبيل الله، إيثاراً للدار الباقية على الدار الفانية!

ذلك بأن ما عند الله خير وأبقى، والقوة كل القوة: أن تكون هنالك دواع في النفس والميول الفطرية للتقاصر، ومع ذلك ينتصر المؤمن في تلك المواجهة؛ فإذا به وسلطان الكلمة الهادية في الكتاب والسنة هو السلطان، والقناعة اليقينية بموعود

الله على البذل في سبيل الله، هي القناعة! وما أكثر الوقائع التي تدل على ذلك في تاريخنا المجيد بدءاً من اللحظات الأولى في رحلة الدعوة المباركة والحمد لله، والموفق من صدَّق جازماً بموعود الله، وراح يعمل بطمأنينة ويقين.

والذي يؤكد هذه الحقيقة: ما نقع عليه من النصوص التي تكشف عن دواعي الركون إلى المال والولد، وتجمع إلى ذلك التذكير بما عند الله لمن يقوى على مغالبة تلك الدواعي.

من ذلك قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

ويقول الله جل شأنه في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾ ﴾.

وفي الوقت الذي ينعم فيه المؤمن بطاعة الله وتقواه في أمره ونهيه، ويأخذ نفسه بالانقياد لقوله تعالى - وهو يرتفع بالمؤمنين إلى مستوى الأداء المطلوب تحقيقاً لمضمون الرسالة الخاتمة - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾الآية، موقناً بأن خزائن الله ملأى لا تغيضها نفقة، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.. لا بد أن يذكر ما نعى الله على من رانت على قلوبهم الضلالة فعموا وصمُّوا حتى قال سبحانه فيهم: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴿١٠٠﴾ ﴾[الإسراء:١٠٠]

الواقع والبناء..
وواحدة من تحديات المنافقين في التاريخ
سورة المنافقون

«١٠»

الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم، وما تواجهه من تحديات وما يعرض للمجتمع المسلم من أمور قد تكون المرضَ أو من أعراض المرض، بالإضافة إلى ما يفرضه حسن التأسِّي.. كل أولئك يقتضينا مزيداً من النظرات المتدبرة فيما وُجه إليه المسلمون في الصدر الأول من وعي لطبيعة التحديات التي يواجهون، ومنها ما كان من الفئة الهدامة فئة المنافقين التي كانت تظاهر اليهود والمشركين على الإسلام والمسلمين، وتعملُ على أن يُحال بين المجتمع الوليد، وبين أن يأخذ طريقَه إلى النمو السليم المتكامل في ظل الرسالة الخاتمة التي أوحي بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد رأينا من قريب ما جاء في تلك السورة المباركة ـ والقرآن كله علوي مبارك ـ التي سميت باسمهم وهي سورة «المنافقون» من الحديث عن واحدةٍ من قبائحهم ـ وما أكثرها وأخبثها ـ على طريق الهدم والعمل على أن يتفرق المهاجرون عليهم الرضوان عن رسول الله ﷺ من طريق الضغط الاقتصادي وعدم المعاونة في الإنفاق على من هم بحاجة إلى الإنفاق بعد أن تركوا كل شيء لهم في مكة وهاجروا لله ولرسوله إلى المدينة، وبيَّن الله أن ذلك من المنافقين ناشىء عن عمى البصيرة، فهم لا يفقهون؛ لأن الأمر ليس متعلقاً بما يمكن أن ينفقوه من المال، فالله هو الرازق المعطي ذو القوة المتين، وبيده خزائن السماوات والأرض، ولكنه متعلق بواجبهم إن كانوا مؤمنين؛ ذلكم قوله في السورة الومى إليها جلت قدرته: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الحرص على البناء السليم كما هو في المنهج الرباني، وما أريد للمؤمنين ـ وهم يصارعون الباطل وأهله في شتى الصور والميادين سياسيةً كانت أو اقتصاديةً أو اجتماعية أو ثقافية ـ من وعي كامل لطبيعة التحديات وألوانها، كي يكونوا قادرين على مواجهتها باللغة المناسبة التي تفلُّ حدَّها وتقضي على فاعليتها.. إذا نظرنا إلى الأمر من هذا الزاوية؛ فمن الخير أن نضمَّ إلى ما أسلفنا من القول في هذه المساءة من أخلاقهم: إشارةً إلى سلاح آخر حاول المناقون أن يغتالوا به حركة الحياة في المجتمع المسلم، فيوقدوا نار الفتنة ويستثيروا دفين الجاهلية الذي يتنافى مع الإسلام.

والدفين الذي نعنيه: مقياس العزة والذلة عند الأوس والخزرج قبل أن يكرمهم الله بالإسلام ويظفروا بذلك الفوز العظيم من الإيمان والنصرة والترفع عن أوضار الجاهلية.

وقد جاء الحديث عن تلك المحاولة الهابطة التي تحمل ما تحمل من المعاداة للإسلام والمسلمين والتي أعلنها رأس النفاق عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول: في أعقاب ما كنا بصدده من الحديث عن خزي المنافقين في شأن الإنفاق ـ أو الإسهام في الإنفاق ـ على أهل الرضا المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيل الله؛ فقد تلا ذلك قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المنافقون :٨] .

قالة السوء الفاجرة هذه جاءت على لسان ذلك الطاغية، وكان طبيعياً أن ينسبها القرآن إلى المنافقين بصيغة الجمع؛ لأنه زعيمهم، ولأنهم راضون عن نفثاته الخبيثة كل الرضا، وجاء هذا الأسلوب في التعبير على معهودات العرب في الخطاب من نسبة قالة الفرد إلى الجماعة إذا توافرت الأسباب.

إنها الفتنة التي أراد ابن أبي سلول أن يضرم نارها على الوجه الذي سوَّله له الشيطان، وزيّنه الهوى، والتي قوامها أن المنافقين هم الأعزة المحتاج إليهم، وأن المؤمنين هم الأذلة ـ على زعمه ـ ولا بد من التغيير، وذلك بأن ينحسر ظل المهاجرين، ويعود الأوس والخزرج إلى ما كانوا عليه قبل نعمة الإسلام من السير في طريق مبايعته على الملك، ولكن كان الله جلَّ شأنه له ولأعوانه بالمرصاد!

إنها نفثة حاقد مظلم القلب، لم يفزعه أن يكون عقله تابعاً لهواه المعادي للحق وأهله ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾أعقبه الله بها الخزي والعار والشنار؛ فقد خاب فأله ومقته أحب الناس إليه! وهو ولده عبد الله رضي الله عنه وأرضاه!

والله الذي ينصر من ينصره، ولا يسلم أحباءه إلى الهوان، بل يحذِّرهم الفتنة، ويسلك بهم سبيل الانتصار على الباطل وأهله: أكرم الأمة بالردِّ الحاسم على قيل عبد الله هذا، فقال سبحانه:﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

سبحان الله ناصر من يتولى الله ورسوله والمؤمنين! وخاذل من يتولى الشيطان والهوى ويعادي الله ورسوله والمؤمنين!!

ثم: أين دعاة الفتنة والمكر بالحق المثقل بالإيمان وحب الجهاد والاستشهاد، من دعاة الخير البناة الأمناء على طريق تؤدي إلى إسعاد البشرية ـ أن لو سلكته بوعي وإخلاص ـ أولئك الذين يواجهون الحياة على المنهج المرضي لله ولرسوله، ويبذلون ما أمكنهم البذل، لا يبالون بشيء ما دام الله راضياً عنهم.

إنهم لجديرون بالعزة، ورفعة القدر والمنعة، وهي عزة يشركون فيها ربهم عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

obeikandl.com

سلوك المنافقين وحماية البناء.. والمطلب الأهم في التكوين والتربية
سورة المنافقون

«١١»

كان تنبيهاً في غاية الروعة والإحكام؛ ذاك الذي نقع عليه في فواتح سورة «المنافقون» حيث نبهت الكلمات الهاديات المسلمين على حقيقة أن المنافقين يتخذون من زخرف القول والأيمان الكاذبة وقاية، يحسبون أنها تقيهم افتضاح أمرهم في الصد عن سبيل الله، وأنهم يظهرون غير ما يبطنون.

وليس ذلك فحسب: بل يبلغ من حماقتهم أنهم يحسبون أن الحيلة تنطلي على المؤمنين، فيجترحون ما يجترحون من سوء الأقوال والأفعال مكراً ومخادعة، ظانين أن الأمور تسير وفق ما يريدون، وكأن شيئاً لم يكن في مجتمع المؤمنين.

لكن الله الذي لا تخفى عليه خافية، يكذّب ظنهم في كل مرة، مضافاً إلى ذلك يقظة المؤمنين وعدم فقدان الذاكرة عندهم، وحسن توقّيهم لما قد تفرضه التحديات، حتى إنك لترى أهل النفاق وقد صدق فيهم المثل القائل: (سعى إلى حتفه بظلفه) والمثل الآخر: (يداك أوكتا وفوك نفخ) وما أكثر النماذج المصدقة لذلك، وليس من مكرور القول التذكير بزيد بن الأرقم وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وما حصل في أعقاب غزوة بني المصطلق، بدءاً من قول رأس المنافقين: ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٢﴾﴾[المنافقون:٢] .

وقد سبقت هذه الآية بالآية التي افتتحت بها السورة حيث الإعلام المقسم عليه بكذب شهادة القسم التي تنزلق على أفواههم وتأباها قلوبهم وهي الشهادة بأن محمداً ﷺ رسول الله. ذلكم قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾[المنافقون:١].

وددت الإشارة العجلى إلى هذه الحقائق وأنا بسبيل خطوة أخرى مع الكشف عن بعض من خلائق المنافقين التي كانت تستخدم سلاحاً في مواجهة البناء الصالح الذي لم يكن يروق لهم أن يكون!!

فقد أسعدنا من قبلُ اصطحاب الآيتين السابعة والثامنة من السورة المومى إليها، وهما الآيتان اللتان جرى فيهما الحديث عن سوء صنيع تلك الفئة المناوئة للحق، ومظاهر الهدم في سلوك ذويها على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي نتيجة التخلخل الإيماني واستبدال الكفر بالإيمان، أعاذنا الله من النفاق وأهله، وهما قول الله تبارك وتعالى فيما هتك من أستارهم ونبَّه على خطورة ما يتقلَّبون فيه من الضغينة والحقد، ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

والحق أن العودة إلى سبب النزول تنبىء بما لا يدع مجالاً للافتراء والشك عن أن هؤلاء الهدامين الذين ابتلي المجتمع الوليد القدوة بهم، فكانوا يمكرون به، ويعملون على أن لا ترتفع قواعده بقيادة رسول الله عليه الصلاة والسلام لو استطاعوا، وتبذل الجهد الجاهد بأساليب شيطانية تضع السمَّ في الدسم، للحيلولة دون تماسك لبناته، وأن يكون في قوته وإحكام والمعايير التي تحكمه ـ كما يتجلى ذلك في سلوك الصحابة عليهم الرضوان ـ صورة صادقة، وترجماناً عملياً أميناً لما ينزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام من كلام الله على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

لقد كانوا يفعلون ما يفعلونه وهم يحسبون أنهم في هذا الصنيع على شيء، ولكن سنَّة الله في نصر من ينصرونَه ماضية، فحركة الحياة دائبة، والخلايا ـ سلماً

وحرباً ـ عند المؤمنين الصادقين، لا يصرفها عن الحركة زخرف أو تمويه! والرحلة المباركة على صعيد البناء ـ الذي هو لخير أمة الإسلام بخاصة، ولبني الإنسان حيثما كانوا بعامة ـ بقيادته الراشدة الحكيمة عليه الصلاة والسلام، تنتقل بهم من طور إلى طور أقوى وأكمل.

وذلك ما كان يزيد من شدة الغيظ عند من ضرب الكفر على قلوبهم بالأسداد، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، ويلهب صدورهم بنار الحقد على القائد وجنده الأبرار.

فالعديد من الروايات الصحيحة تنصُّ على أنه في أعقاب غزوة بني المصطلق حصل نوع من الخلاف بين غلامين من الأحداث، أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار. ولما بلغ ذلك رأس المنافقين عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، حامل لواء الضلالة يومذاك: رآه مناسبة للدس والوقيعة عساها تجدي في تحقيق شيء مما يريد، حتى كان مما قاله: قد ثاورونا ـ يعني المهاجرين رضي الله عنهم ـ في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل (سمِّن كلبك يأكلك) والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ!! كبرت كلمة تخرج من فيه عليه وعلى أمثاله لعائن الله!!

ثم أقبل على من عنده وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها!!

وبلغ الأمرُ رسولَ الله ﷺ، وكثر الحديث عن الموضوع.. وبعد موقف متأنٍ كان عين الحكمة منه عليه الصلاة والسلام: نزلت سورة «المنافقون» ومن آياتها البينات: قول الله الذي لا تنفد خزائنه، ولا تخفى عليه خافية وهو العزيز الحكيم:﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

هكذا ـ مع التوجيه الإيماني الفريد إلى العمل والدأب على أساس من العقيدة الصحيحة التي تسعف ـ أبداً ـ في الصبر والقدرة على المتابعة مهما اعترض الطريق من ألوان المشقة والصوارف رغباً ورهباً ـ وضرورة التواؤم بينها وبين السلوك على صعيدي الفرد والجماعة..

نعم هكذا تعرِّي الكلمة القرآنية الهادية موقف ابن أبي سلول، إشارةً إلى أن التنبه إلى ما درج عليه الهدامون من توجيه السهام إلى مسيرة البناء التي تشتمل أمور الدين والدولة جميعاً: ما بدٌّ من أن يصحب عملية البناء نفسها: الكثير من التبصُّر فيما وقع ويقع، وأن لا يهمل ربط النتائج بالمقدمات، والحرص على أن لا تكون الذاكرة مثقوبة لا تحفظ ولا تعي الوقائع وبواعثها التي تتربى في محاضن النفوس إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالمؤمنون الذين لم يكونوا عند الواقعة المشار إليها قاعدين أو متباطئين: نبهوا ـ والله أعلم ـ كي يكونوا أثبت من المفاجأة وأقدر على التصرف المناسب في المستقبل: نبهوا على ضرورة اليقظة أكثر وأكثر وعدم الغفلة عما تقتضيه مواجهة التحديات من العلم بما عند الخصم عند الإعداد لتلك المواجهة!

ولعل المسلمين اليوم ـ وحال النكبات والمصائب هي الحال ـ بأمسِّ الحاجة إلى أن يصحب عملية استئناف البناء المبتغى: هذا الوعي الذي يعرِّي ـ حسبما تقتضيه كل مرحلة ـ موقف الهدامين ظاهره وباطنه المدلول عليهما بأصابع الاتهام المدروس المصحوب بالدليل، وإعداد العدة الصحيحة التي تتيح استعمال اللغة المناسبة التي لا معدى عنها ـ وأعداءُ الحق ماضون في الافتراء وإيقاد نار الفتنة زاعمين أنهم يحسنون صنعاً ـ.

* * *

سورة المنافقون..
وحماية البناء تربية وسلوكاً

«١٢»

قادنا المعلم القرآني فيما سبق ونحن نسعد باصطحاب الآيتين السابعة والثامنة من سورة «المنافقون» إلى أن سبب النزول المرتبط ببعض آيات السورة الكريمة: يكشف عن أن المنافقين ـ وعلى رأسهم حامل لواء الضلال عبد الله بن أُبي بن سلول ـ كانوا يوجهون سهام الأذى إلى دين الإسلام الحنيف ممثلاً في جند الحق بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، والمسلمون في حركة دائبة تهدف إلى إعطاء تلكم المبادىء المكينة في رسالة الإسلام وجودها العمليَّ في كل ميدان وعلى كل صعيد.

إن قالة السوء التي رأينا: أطلقها هذا الطاغية وهو يحرص على أن تعمل عملها في الاستجابة لما أراد من التصدع، ولكن الله سلَّم، ودُرئت الفتنة التي صدرت المحاولة الشيطانية لإشعالها وصدق بسادن النفاق قولهم: (على نفسها جنت براقش) لأن المهاجرين والأنصار كانوا بحمد الله على قلب رجل واحد، تماسكاً واعتصاماً بحبل الله المتين، وحُباً للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فلقد زاد وقع تلك الكلمات من تصميمهم على المضي فيما هم بسبيله من البناء على الإيمان ووحدة الصف، وكانت العزائم تتجدد دونما سآمة أو فتور.

ولا ينكر منصف ما كان للدور الإيماني الفعّال الذي قام به صحابينا الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه في اجتثاث الفتنة من جذورها.

والآيتان الكريمتان هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

إنهم لا يفقهون ولا يعلمون؛ لما أنهم يحاولون بأظلافهم المتآكلة نقب الجدار القوي الصلد الذي بناه رسول الله ﷺ على العقيدة البيضاء النقية التي تشعر المسلم بحريته ووجوده الذاتي، وغذاه، وما يزال يغذيه بالعمل الصالح ـ بشموله وماله من سلطان ـ العملُ الذي يقوم به المؤمنون والمؤمنات مهاجرين وأنصاراً، والجهاد الذي لا يفتؤون يتسابقون إلى ميادينه مسارعة إلى الشهادة في سبيل الله، كيما تكون كلمة الله هي العليا!!

كل أولئك في ظل تعاون إيماني صادق سداه ولحمته ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] يغذيه وينميه امتثال نيِّر واع لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران:١٠٣] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] .

وإذاً، فالموقف البناء المتسم بالتخطيط المرحلي المدروس من الفئة المؤمنة، والذي يتَّسم بالجدية وصدق العزيمة في ضوء تذوق لحلاوة الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب: جعل من مواقف المنافقين المريبة في دعوتهم إلى عدم الإنفاق على المهاجرين عليهم الرضوان، وللتعاون الاقتصادي، وفي المجادلة الظالمة البلهاء لإثارة الفتنة وتفرقة الصفوف: عنواناً عريضاً لافتضاح حقيقتهم ولعدم الفقه النفسي أو العملي لما هو النافع ولما هو الضارُّ، ومؤشراً على عدم العلم الحقيقي بما هو حق وما هو باطل، وبميزان القوى كيف يتجه لصالح المسلمين الذين يشغلون الوقت بالعمل المثمر البناء في أعقاب ما كان قبل الإسلام من الفرقة والتنافر بين الأوس والخزرج، وما كان من سلطان إعلامي واقتصادي لليهود.

وهم إذ يقومون بهذا الدَّور الخير، يرتادون للبشرية ـ على وجه الحقيقة ـ طرائق الخير والنماء ورفع المظالم والقضاء على عبودية الإنسان للإنسان.

هكذا بهذا الوضوح، بعد الكشف عن دعوة الفئة الضالة إلى عدم الإنفاق على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا: ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾وبعد القالة الهابطة: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ختمت الآية بقوله جل شأنه: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

من أجل ذلك، يمكن القول بأن ـ مع الوجه المشار إليه ـ وجهاً آخر يحمل البشارة للمؤمنين في كل زمان ومكان: أنهم بسلوكهم المنسجم مع عقيدتهم وجنديتهم الحقة للرسول عليه الصلاة والسلام، ووعيهم لما يدور حولهم من التحديات، واستمساكهم بكل ما ينمي وحدتهم وقوتهم الذاتية؛ كل أولئك كفيل بإذن الله برد السهام المعادية إلى صدور أصحابها، وردع كل من تحدثه نفسه اقتحام الصف الإيماني اليقظ، المنسجم مع سنن الله في الكون، غير الغافل عن الواقع الإقليمي والدولي والله المستعان.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الشباب وحماية البناء تربيةً وسلوكاً.. وسورة المنافقون

«١٣»

عطاء سورة «المنافقون» على صعيد الحماية للبناء في المجتمع المسلم: عطاء كبير يكشف في بعض صوره عن بعض من أسلحة هؤلاء الهدامين، وكيف أن أهل الإيمان لهم بالمرصاد، كما يكشف عن الأهمية العظمى لدور الشباب في ذلك، وأن حركة البناء المثمر في المجتمع المسلم: ما بدٌ من أن يصحبها التنبه إلى صنيع الهدّامين فيما يبيتون من الأذى ويحاولون توجيه الضربات المفزعة إلى بنية ذلك المجتمع، وأن المؤمنين إذا توافر لهم هذا التنبه ـ وبخاصة الشباب وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً ـ وكانوا على الطريق الأمثل فيما تحكيه رحلة البناء من واجبات على الفرد والجماعة رسمت معالمها العقيدةُ: تعود سهام أولئك الأعداء إلى صدورهم وتتكشف مواقفهم ويبدون وهم لا يفقهون ولا يعلمون.

وكان هذا التنبه بحمد الله من الصحابة بعامة ومن واحد من خيرة شبابهم بخاصة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان إيمانه أقوى من عاطفته الغريزية نحو أبيه رأس المنافقين ـ كما سيأتي ـ. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحقيقة التي نومىء إليها، والتي يذكر معها واحد من جلة شباب الصحابة هو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه كانت بعضاً من عطاء الآيتين الكرميتين السابعة والثامنة من تلكم السورة المباركة، وهما قول الله جلت قدرته في تبرئة لبعض مواقف من سميت السورة جميعها باسمهم، والكشف عن تلكم المواقف وعظتها: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

والحق أن الناظر في السورة بكاملها نظرة تدبر وتبصُّر يقف على طريق القرآن المتميزة في الكشف عن الجذور العميقة لتصرفات المنافقين ومواقفهم الظالمة البلهاء.

وفي ذلك درس للمسلمين ـ في كل زمان، ومع كل ظرف من الظروف ـ مع اختلاف ما يطرأ ويفجأ من صور التحدي ـ وهو درس أيُّ درس يأخذ بأيديهم إلى ضرورة التنبه للعوامل الحقيقية التي تكمن وراء تصرف الأعداء، والقيم الهابطة التي يرتد إليها صنيعهم ووقوفهم للدعوة التي تعمل على بناء الإنسان بناءً يضمن الحفاظ على إنسانيته وحريته والاتجاه بحركة الحياة وجهة الخير والنماء في كل ميدانٍ وعلى كل صعيد.

وكل أولئك في ظل الشريعة السمحاء التي أنزلها ربنا جل ثناؤه العليم بما يصلحُ لعباده، ويُسعدهم في الدنيا ويوم الدين.

ها نحن أولاء نقرأ في السورة الكريمة ـ بدءاً من الآية الأولى ـ خطاباً للنبي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

إن كل واحدة من هذه الطامات الواقعين فيها، تلك التي تكشف عنها الآيات من معتقد المنافقين وسلوكهم المخزي، تجعل قالة السوء، أو الموقف المحارب لله ولرسوله وللمؤمنين، وكأنه نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية!!

إذ كيف يسهمون في الإنفاق على ذوي الحاجة ممن عند رسول الله من المسلمين، وقلوبهم تشتعل ـ والعياذ بالله ـ بنار الكفر والحقد؟! أم كيف يُسَرُّون ـ وهم على هذه الشاكلة ـ بوحدة الصف عند المسلمين وتآخيهم على كلمة الهدى في سبيل الله، واجتماع قلوبهم على محبة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام؟!

كأني بهذه الآيات في هذه السورة وأخواتها من سورة التوبة، وسورة النساء، وسورة النور، وسورة الأحزاب وغيرها: تصرخ بالمسلمين اليوم ـ والحال هي الحال ـ أن تيقظوا وخذوا بالأسباب المعنوية والمادية واحذروا، فالكفر وذووه لكم بالمرصاد تحت شتى العناوين وألوان الزخرف والتمويه، والله معكم إن نصرتموه بالإعداد الصحيح، والأسلوب الحكيم، مستظلين بظل شجرة الإيمان الوارف، ولن يتركم أعمالكم.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

سورة «المنافقون»..
وقضية كبرى على طريق البناء

«١٤»

تكاد تجمع الروايات التي وردت في أسباب نزول سورة «المنافقون» المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ كما جاء عند الشيخين وأحمد والبيهقي وغيرهم على أن كلمات ابن أبي سلول أخزاه الله ومنها ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ أثارت حذر المسلمين من الفتنة، ونبهتهم ـ وهم يجتازون المصاعب في رحلة البناء التي تناولت ميادين السلم والحرب ـ إلى خطورة ما يريده المنافقون بزعامة ابن أبي سلول.

وقد جاء في بعض تلك الروايات: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع بالذي يقوله زعيم المنافقين، قال للرسول عليه الصلاة والسلام: دعني أضرب عنق هذا المنافق! فقال رسول الله ﷺ: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

وفي رواية لابن إسحاق أن عمر قال: يا رسول الله مُر عباد بنَ بشر فليضرب عنقه، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «**فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن ناد عمر في الرحيل**».

وإنما كان هذا من الرسول ﷺ ـ وهو عين الحكمة ـ لأن الطاغية ابن أبيٍّ محسوبٌ على جماعة من المسلمين، إذ ما بدا نفاقه إلا من تصرفاته بعد أن أعلن إسلامه.

ولا يخفى أن القضية لا تخلو من شديد الحرج بالنسبة للمجتمع ووحداته التي هو مركَّب منها، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام اقتحم عقبة الحرج وقضى ـ بعون الله ـ على الفتنة.

ومهما يكن من أمر: فالقضية برمتها صورة لها دلالتها في مجتمع يمور بالحركة الدائبة على طريق البناء الأمثل ويعمل أبناؤه على تخطي تلكم العقبات!

وأنت ترى أن رسول الله ﷺ ـ وهو يقود تلك الحركة المباركة ـ ينظر إلى الرغبات ـ مع الإيمان وصدق النية عند أصحابها وانضباطهم بضوابط الإيمان ـ نظرات تشرق بنور النبوة وحكمة الهدي الرباني الذي كان يظلُّ الخُطا وينير السبيل؛ فكان ـ مع المشورة ـ يوجه الآراء والاجتهادات في الحالات جميعاً وجهتها الهادفة المثمرة، التي تضع كل أمر موضعه من المسيرة الكبرى على أرض التاريخ!

والوعي الذي نَلمسه في الجماعة المسلمة ـ وهي تواجه التحديات المتجددة التي لا تنحصر بصنيع المنافقين المذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل كان يصحبها دائماً ما هو من طبيعة الصراع بين الحق والباطل ـ كان بحمد الله وعياً يعلن إعلانه بأنه كفاء الملمَّات والتحديات، لما أنه صورة عن إحكام البناء في شخصية المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وما صنعه رسول الله عليه الصلاة والسلام، عندما كان يعلم ويربي ويزكي أولئك البررة ويبني بهم المجتمع الفاضل الأمثل الذي تبيَّن بحق أنه المجتمع القدوة في دنيا البشرية يومذاك.

وهنا فيما نحن فيه من الوقائع المتعلقة بأسباب النزول في سورة «المنافقون» يقع الناظر فيما ورد من الآثار حول قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ بل وما ورد حول السورة بكاملها، وسبب نزولها ـ على وجه العموم كما أشرت من قبل ـ يقع الناظر في تلكم الآثار على الكيان الأنموذج عند الفرد الذي تناولته يد محمد ﷺ الصناع بالتربية والتزكية والإعداد.

هذه ومضة من ومضات السنا تبدَّت من خلال الوقائع التي كانت اختباراً لمقدار ما للإيمان من أثر في سلوك أولئك الجند الأماثل الذين أسلموا قيادهم لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

إنها ومضات نراها وهي تدل أبلغ دلالة على ما كان يتمتع به الصحابي الجليل الشاب عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، من الإيمان الصادق الذي يتجاوز بصاحبه عقبات الميول والعواطف التي تتنافى معه، والحب الصادق لله ولرسوله؛ الأمر الذي حدَّد طبيعة العلاقة بينه وبين الآخرين، ولو كانوا أقرب الناس إليه، وفي مقدمتهم أبوه. فالعقيدة هي محور النسب الصحيح، وهي مقياس القرب والبعد. روى محمد بن إسحاق أن عبد الله هذا رضي الله عنه وأرضاه، لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني؛ إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتلَ مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال له رسول الله ﷺ: « **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**» ومعلوم أن صحابينا رضي الله عنه منع أباه من دخول المدينة ليريه من الأعز ومن الأذل، حتى أرسل إليه الرسول ﷺ، فخلَّى سبيله فدخلها.

وإلى أن نعاود الرحلة في سطور قادمة طلباً للاستزادة من فقه المعلم القرآني: تجدر الإشارة إلى أنه بمقدار ما يكون التصور سليماً والرؤية واضحة للغاية وأبعاد الطريق إليها: تكون العناية ببناء الفرد وإحكام القواعد التي تجنب المجتمع مزالق التخلخل والجنوح.

وهؤلاء البناة الأخيار من أمثال عبد الله بن عبد الله بن أبي الذين بنوا ـ بقيادة صاحب الرسالة ـ فأحكموا البناء، وجابهوا الصعاب من داخل النفس، ومن تحديات الأعداء، فانتصروا عليها: كان أول ما تميزوا به وقد فتحوا قلوبهم وعقولهم لعقيدة

التوحيد، ذلك الانتماء الصادق الذي كان عنوانه أن حُبَّ الله ورسوله مقدم على ما سواه، وهي قضية بالغة العظمة، كان لها طيب الأثر وأقواه في تلك المنجزات التي حققوها للإنسانية أيام ارتادوا الطريق الصعبة الشائكة، ولم يبخلوا بما تتطلبه من بذل وعطاء، وكان همُّهم أن يفوزوا بمرضاة الله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

المنهج المتكامل..
وواحد من البُناة وسورة المنافقون

«١٥»

إن الحقيقة التي يبرزها ما كان عليه أولئك الذين انشرحت صدورهم للإيمان، واستجابوا لدعوة الحق بيقين، وحكَّموها في سلوكهم وكل شأن من شؤونهم، وهم يجتازون إلى مجتمع جديد تنشئه بأيديهم وعلى كواهلهم عقيدة التوحيد بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، وهديه الميمون..

إن هذه الحقيقة التي عملت عملها في صناعة تاريخ الإسلام، تستدعي مزيداً من الإحاطة بالوقائع التي انتظمتها حياة كل منهم بوصفه جندياً أميناً من جنود الحركة البانية التي طالما انتظرت البشرية موعدها، وحارساً أميناً من حراس عقيدة التوحيد التي كانت يومذاك تعاني من حرب ضروس تقودها وثنية معلنة، أو مثلها مقنعة.

ومن أبرز ما تشرق به تلك الحياة: التفاني في طاعة رسول الله ﷺ ومحبته؛ حتى إنك لتجد الواحد منهم ورسول الله ـ وهو المبلغ عن الله ما أراد ـ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، بل ونفسه التي بين جنبيه، مصداقاً لما روى البخاري وغيره من حديث عبد الله بن هشام أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله وسلم وبارك عليه: (لأنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي) فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال عمر: (فإنك الآن والله أحب إليَّ من نفسي)، فقال: «**الآن يا عمر**».

وفي نظرة عجلى إلى بعض من تلك المعاني المومى إليها: أشرنا ـ فيما سلف من قريب ـ إلى ما حملت كتب السيرة من موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول من أبيه رأس المنافقين في المدينة الذي بدرت منه في إحدى

المناسبات كلمات مخزية تقطر بالسم الناقع عداءً لرسول الله ﷺ وللمسلمين، حيث نزلت فيه وفي أعوانه وخلصائه من المنافقين تلك السورة الجامعة ـ وسور القرآن كلها جامعة مباركة ـ التي سميت باسمهم، والتي جاء فيها قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

وبعد البيان عن الران المطبق على قلوبهم حيث يلوون رؤوسهم ويصدُّون وهم مستكبرون رداً على نصحهم بالإتيان إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم، ثم تيئيسهم من المغفرة لإصرارهم على الخروج عن الإيمان.. جاء قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ الآيات.

كما أسعدتنا الإشارة إلى موقف عبد الله الابن رضي الله عنه وهو ذلك الصحابي المتألق إيماناً واعتزازاً بالدين ومحبة لسيد المرسلين، وهو موقف ينمّ عن سلامة البنية في الفكر والتصور والسلوك عن الفرد المسلم الذي يحب رسول الله ﷺ حباً يتجاوز حبَّه أباه الذي كان أبرَّ الناس به؛ فقد استأذن رسول الله ﷺ أن يقوم هو بقتل أبيه إن كان لا بد أن يُقتل بعد الذي صدر عنه من قالة السوء الذميمة التي لولا قوة الإيمان عند المهاجرين والأنصار لفعلت الأفاعيل في تمزيق الصف وزعزعة الكيان، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد الحكماء ـ حال دون عبد الله ودون ما همّ به لو أُذن له وقال: « **بل نحسن صحبته ونترفق به ما بقي معنا**» إلى جانب إجراء معيَّن صرف الجيش عن إضاعة الوقت بواحدة من ترهات المنافقين!!

غير أن الوقائع لم تنته عند هذا الموقف الفعَّال بصمت! إذ لا بد في نظر هذا الصحابي الشاب المتوقد غيرة على الحق الذي يؤمن به، من العمل على أن تستعلي كلمة هذا الحق، ويتضح لعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ولغيره من المنافقين،

أن قافلة الإيمان التي أخذت على عاتقها بناء الحضارة المثلى على نور من عقيدة التوحيد، ثم حرص على إنسانية الإنسان: تأخذ طريقها بقوة والحمد لله، وأن العزة الحقيقية لله ولرسوله وللمؤمنين، لا لمن يتعزَّى بعزاء الجاهلية، ويتوارى وراء الأيمان الكاذبة، والنفاق المهين، ولا يكون النفاق إلا مهيناً!!

وهاك تفصيل ما صنع صحابينا عليه الرحمة والرضوان ـ بعد الإشارة السريعة إلى ذلك من قبل ـ رداً على موقف أبيه في قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾؛ فالحق أحق أن يتَّبع، ولن يكون القريب الجانح عن الصراط، مهما كانت درجة قرابته، أحبَّ إلى المؤمن من الله ورسوله وإخوانه المؤمنين، والجهاد في سبيل الله.

روى عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدالله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي. قال له: وراءك!! فقال: مالك ويلك؟! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ؛ فإنه العزيز وأنت الذليل؛ فلما جاء رسول الله ﷺ، شكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ: فجُز الآن. ورواه الحميدي في مسنده في خبر أطول من هذا.

والحق أن هذا الأنموذج الذي نجده في واحد من شباب الصحابة كان والده رأس المنافقين الذي يتصرف بلا حياء ولا خجل: يكشف ـ كما أشرت غير مرة ـ عن طبيعة الصياغة التي صيغ عليها هؤلاء الرجال وفق منهج عنوانه ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[البقرة:١٥١] والتي جعلتهم يتخففون من كل ما قد يثقل العاملين ويحول دونهم ودون أن تكون ممارستهم للحياة ومنهج سلوكهم وهم يشيعون في جنباتها مقومات البناء والنماء: صورة عملية وترجماناً أميناً لما آمنوا به وحملوا من قيم.

وفي هذه الحقبة الراهنة من تأريخ أمتنا: ما أغلاها ـ والمخاطر تكتنفها من كل جانب ـ أمنيَّةً، وما أسماه مطلباً: أن تبذل الجهود وفق برامج مدروسة لا تتجاهل الواقع، ولا تنأى عن سنن الله في الكون، وتتخذ الأسباب التي يتاح معها لقواعد البناء للإنسان والحياة على السَّنن الذي صحب حركة الحياة بالأمس، والتي كان من أبطالها أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا رمز الوفاء لعقيدتهم بذلاً وجهاداً وإيثاراً في كل ميدان يطلب فيه البذل والجهاد والإيثار.

* * *

obeikandl.com

بناء الإنسان... وعطاء سورة «المنافقون» على ساحة التغيير إلى ما هو الأقوم

«١٦»

عندما يكون الحديث عن المجتمع حديثاً في البناء الموجَّة وجهة الخير للفرد والجماعة، واتخاذ الخطوات اللازمة علماً وعملاً من أجل أن تشيع الحياة في كل واحدة من بُنى ذلك المجتمع الثقافية منها، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، في تكامل يمهد للعطاء المتجدد، وإحكام القدرة الذاتية للأمة... عندما يدار الحديث على هذه الشاكلة من أولي النهى الأقوياء الأمناء: يكون من لوازم السير إلى الغاية المرتجاة أن تكون الصدارة للعناية ببناء الإنسان، وإعداده إعداداً متكاملاً متوازناً، قوامه العقيدة الصحيحة. وسلامة التصور، والتزود بالقدر الواجب من المعرفة تزوداً مقترناً بالتربية والتزكية؛ لما أن الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ في التصور الإسلامي: هو المحور في ميادين البناء، والطاقة القادرة ـ بإذن الله ـ على الإفادة مما سخر الله في كونه العريض للإنسان.. وكل أولئك على صعيد التخطيط والتنفيذ!

وذلك بعض من عطاء قول الله جل ثناؤه في سورة التين: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[التين:٤] وقوله تباركت أسماؤه في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠]

على هدي هذه المقولة: كانت لنا وقفة مع المعلم القرآني في سورة «المنافقون» لما أن مواقف هذا الصنف من أعداء الله ورسوله: كان يمكن أن تهدد المجتمع المسلم الوليد بالمخاطر، فينعكس ذلك على واقعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لولا أن كشف الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام عن مخازيهم ومكرهم، وكانت

حكمة النبي ﷺ وعظيم حصافته في تناول الأمور، وصدق انتماء الصحابة عليهم الرضوان إلى الرسالة الخاتمة في ظل الأخوة الإيمانية التي تستعلي على الفوارق المادية، والموروثات الجاهلية لهم بالمرصاد.

وقد عرجنا فيما سبق من القول في هذه القضية الكبرى على نموذج من نماذج الطاقة البشرية في صفوف المؤمنين، وهم يرسخون دعائم الحق، ويصارعون الباطل وأهله في شتى الميادين والمنحنيات.

ذلكم ما حملت إلينا المصادر عن موقف الصحابي البطل عبد الله ابن عبد الله بن أبي بن سلول، حيث كان رضي الله عنه، أقدر على تجاوز ما يكون من العقبات النفسية والاجتماعية، ومالها من سلطان على اتخاذ القرار، واستأذن رسول الله ﷺ أن يتولى هو بنفسه إزهاق روح أبيه إن كان الاتجاه إلى عقابه بذلك.

ولكن رسول الله ﷺ بحكمته ورحمته وتفرُّده المتميز بالمقدرة على وزن الأمور بالميزان الدقيق الذي لا يعول، لم يأذن له بذلك، بل سرَّى عنه وأدخل إلى نفسه الطمأنينة بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**بل نحسن صحبته ونترفق به ما بقي معنا**»

وكانت هذه المكرمة من رسول الله ﷺ أقوى في رد كيد بن أُبي في نحره، والحيلولة دون العصبية الجاهلية عند من يأتمرون بأمره، ودون أن تثور ويستخدمها الشيطان في إيقاد الفتنة والعياذ بالله!!

ومما يستوقف المتبصر في الأمور، والراصد لآثار الإيمان ومحبة النبي ﷺ في نفوس أولئك الأبرار الذين ربَّاهم النبي ﷺ على عينه: أن هذا الموقف منه عليه الصلاة والسلام، لم يُنه التحرك الذي يرى وجوبه صحابينا رضي الله عنه.

ذلك بأنه كان يرى أنه لا بد من أن يرد الحق إلى نصابه في دعوى العزة والذلة، فمنع والده الذي قال قولته الذميمة: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، والتي أراد بها أن العزة له ولأعوانه، والذلة للمسلمين وفي مقدمتهم المهاجرين

رضي الله عنهم أجمعين.. منعه ـ على رؤوس الأشهاد وهو من هو في الخزرج ـ من دخول المدينة إلا بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام... وكان هذا الإذن من سيد العالمين الذي ينظر إلى الوقائع بنور الله.

وأثبت رضي الله عنه لأبيه ولمن حوله من شراذمة المنافقين: أن للدعوة الإيمانية البناءة رجالاً يحققون بصنيعهم أن العزة ليست لمن يتعزى بعزاء الجاهلية، ويبني بنفاقه قصوراً من دخان، مؤملاً من وراء ذلك الوصول إلى مبتغاه كما يشاء له هواه، ولكنها لله ولرسوله وللمؤمنين.

وآثار هذا الأنموذج الخيِّر للإنسان الخيِّر فيما أنجز الإسلام على المستويين الإقليمي والعالمي من بناء حضاري لا يشكو العوج ولا العرج، وفيما نمَّى من طاقات وإمكانات، قطفت البشرية من ثمارها الخير الكثير... هذه الآثار تحملنا على إيراد الرواية الأخرى حول صنيع هذا الصحابي الذي حملته قوة إيمانه إلى هذا المستوى المتميز من التصرف الحازم الحكيم!

وأعني بذلك ما روى الحميدي في مسنده عن أبي هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه: «**لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل!!**».

هكذا بهذا الوضوح أعلنها صحابينا رضي الله عنه، وكانت سلاحاً فعَّالاً في مواجهة ما يبيته أهل النفاق وأعوانهم من المشركين واليهود، كما كانت عزمة من عزمات الرجال يقتدى بها على صعيد المجتمع الإسلامي نفسه، لما تصنع هذه المواقف وأمثالها من قضاء على التردد الذي قد يقع ـ ولو على الندرة ـ في مثل هذه المناسبات التي لا بد أن تكشف عن الأرجحية في ميزان العلاقة الإيمانية بالله وبالرسول وبالمؤمنين من جهة، والعلاقة النسبية ـ أو العاطفية عموماً ـ في منأى عن الإيمان بمن هم على عمود النسب والقرابة، كائناً ما كان موقع الواحد منهم على هذا العمود.

وهكذا تجد أن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي، وضع الواقعة برمتها بدءاً من تفوُّه أبيه بما تفوَّه به من كلمات ـ كبرت كلمات تخرج من فيه ـ وحتى آخر الشوط.. وضعها الموضع الذي كان مجلبةً للمدِّ الهائل بها وبأمثالها في تبدل ميزان القوى ومواقع النفوذ على أرض الصراع بين الحق والباطل.

وكم كان موقف رسول الله ﷺ عظيماً، ومنظوراً فيه التبصُّر الواقعي والمرحلي، حين أذن لوالد عبد الله بدخول المدينة، مبرهناً له أنه ﷺ ـ وهو الأعز ـ يتصرف من منطلق القوة والعزة الإيمانية بحلم وسعة صدر.

وبعد: فإذا كان ضياء الواقعة الكلية وما اكتنفها من جزئيات، لا يكاد يخفى على ذي بصيرة: فلا عجب ـ وبناء الإنسان دائماً هو الأهم ـ لا عجب إن رأينا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد ائتمن على قيادة عملية البناء الشامل لكل الميادين بدءاً من ميدان العقيدة والفكر ـ يعني شديد العناية بالإنسان، لأن الموارد البشرية المؤمنة المؤهلة للإنجاز، هي التي تجلب ـ بتوفيق الله ـ الموارد الأخرى، وتسلمها إلى حيث النتائج المرتقبة، وتحقيق ما تنشده الأمة من غايات كبار على هدي الكلمة الطيبة «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

* * *

المنافقون وحقيقة الارتباط بين المعتقد والسلوك على ساحة البناء وسورة التوبة

«١٧»

حقيقة أن الارتباط قائم بين المعتقدات والأفكار، وبين السلوك، ومظاهر الممارسة لشؤون الحياة.. هذه الحقيقة القرآنية ـ والحديث موصول بصحبتنا للمعلم القرآني في سورة المنافقون ـ تعيدنا إلى التذكير بأن ما كان من دعوة المنافقين بعضهم بعضاً ـ وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي ـ إلى إحداث تلك الثغرة الاقتصادية النابية في المجتمع المسلم، من طريق الدعوة إلى عدم الإنفاق المطلوب، وعدم التعاون على فعل الخير، والمحاولة الظالمة لإثارة الفتنة بين الإخوة المؤمنين، وخلخلة الصف حول الرسول ﷺ وما كان من موقف ولده الصحابي الشاب وحسمه القوي المؤمن الذي كان درساً لشباب الأمة المسلمة لا يبلى على الدهر:

نعم إلى التذكير بأن هذا المسلك سمة من سماتهم كشفت عنها سورة التوبة عندما جاءت الآيات على أبرز وأوضح ما تقوم عليه حركة البغي والنفاق، وما يطبع سلوك المنافقين من الرغبة في الهدم والقضاء على بنية الجماعة المسلمة.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التوبة:٦٧].

ثم توعدهم الله على صنيعهم الصادِّ عن سبيل الله بالطرد من رحمته وللعذاب الأليم خالدين في جهنم وبئس المصير، فقال جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة:٦٨].

لقد كان من وسائل الهدم عندهم ـ كما نرى ـ وهم يواجهون دعوة الله المباركة للتي استهدفت ـ فيما استهدفت ـ بناء الإنسان والحياة على أفضل الأسس وأكرمها وإعطاء البناء طابعه الشمولي العميق.. كان من وسائل الهدم والتخريب عندهم: عدم الاقتصار على قبض الأيدي والإمساك عن الإنفاق المطلوب في سبيل الخير، بل ضموا إلى ذلك الكثير من مساوىء الأخلاق؛ كالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونقض العهود، والتشهير الإعلامي في تنقيب عن المعايب، واستهزاء وسخرية من صنيع أهل الإيمان الذين لا يبخلون بالعطاء، مؤمنين بوعد الله المنفقين بالأضعاف المضاعفة؛ فتجدهم منفقين في سبيل الله باذلين كلٌ حسب طاقته وما يملك، ولو كان القليل اليسير، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعلمون؛ همُّهم المظاهرة على الحق وأهله بما يستطيعون!!

ألم تر إلى قوله تعالى في السورة نفسها سورة «التوبة» في شأنهم؟ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة:٧٥-٧٩].

أما الجماعة المؤمنة التي رأينا من صنيعها مواجهةً لما كشف عنه المعلم القرآني في سورة «المنافقون» أيضاً: فإن موقفها يرتدُّ تلقائياً إلى ما جاء في سورة «التوبة» من تحديد لطابع المنهج الذي كان يطبع سلوك المؤمنين على صعيدي العقيدة والسلوك، وهم يزاولون عملية البناء الكبرى بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام واثقين مطمئنين، ويبذلون الجهد الجاهد ـ طاعةً لله ـ لتنمية الطاقات بأنواعها وألوانها، ولم الشعث، والقضاء على عوامل التخلف، والحيلولة دون شيء منها أن يتسرّب إلى النفوس أو الأعمال؛ بل ووضع حدٍّ لسلطان اليهود في بُنى المجتمع الثقافية، والاقتصادية والاجتماعية.

ذلكم قول الله جلَّ شأنه بدءاً من الآية الحادية والسبعين من تلك السورة التي هتكت أستار المنافقين: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

ومع التمكين في الدنيا، وعدهم الله بالخير العميم في الآخرة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢].

ألا ترى معي أنه بناء الإنسان على الصورة التي تزكيه وتمكنه من بناء الحياة بناءً يرقى به ـ والفضل لله أولاً وآخراً ـ إلى سعادة الدنيا والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، وبالرضوان الأكبر يوم الدين؟!

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

سلامة البناء ومدى الارتباط بين العقيدة والسلوك في المجتمع وسورة التوبة

«١٨»

هذا حديث موصول بما وقفنا عليه المعلم القرآني من دلالة ما جاء في الكتاب الكريم في شأن كلٍ من أهل الإيمان وأهل النفاق: على مدى العلاقة بين المعتقدات والأفكار، وبين السلوك وما ينتهجه الإنسان في ممارسته لشؤون الحياة، وما لذلك من انعكاس على تحرك الجماعة، وبنية المجتمع.

قادنا إلى ذلك ما رأينا فيما سبق من القول، من أن ما اجترحه رأس المنافقين عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وزمرته في أعقاب غزوة بني المصطلق: أنموذج واضح لما كشفت عنه سورة «التوبة» من السمات الأساسية التي تطبع تفكير المنافقين ـ وهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ـ وتشعر بالمنهج المنحرف الذي يتسربل به سلوكهم هنا وهناك!!

أعني بذلك قول الله تباركت أسماؤه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ .... ﴾ الآية.

ومن تمام البيان لعاقبتهم عند الله بعد هذا الكشف عن ظلمات سلوكهم: ما تلا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

وعلى النقيض من هذه الصورة التخريبية المظلمة وعاقبة أصحابها في دنياهم وأُخراهم: نقع على الصورة المشرقة للمؤمنين الذين استنارت قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالقناعة بما جاءهم من الهدى؛ أولئك الذين يعطون باستقامة سلوكهم، وبذلهم المستطاع على طريق البناء، وحرصهم على سلامة الجماعة والمجتمع من

الأذى، أوضح دليل على صدق الوجهة في جديتهم لبناء الإنسان القادر على ترجمة ما أشرقت به الرسالة الخاتمة إلى إنجاز نافع مثمر لخير العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وخير البشرية جمعاء لما أنَّ البشرية معنية بهذه الرسالة، والاتجاه بحركة الحياة وجهة الخير والنماء للجماعة والمجتمع؛ الأمر الذي يبشر بالوجود الذاتي للأمة في شتى المجالات والميادين، ويسلمها في ظل المنهج الرباني إلى حيث يصدق فيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران:١١٠]

والصورة التي نلمح إليها في شأن المؤمنين والمؤمنات: هي تلك الصورة الميمونة التي أشرقت بها الآية الحادية والسبعون من سورة التوبة نفسها وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ...الآية ـ كما ألمحنا من قبل ـ والتي وقفتنا على السمات الأساسية للمنهج البناء في حركة الفرد والجماعة، فكراً وسلوكاً وما تقتضيه صياغة المجتمع، وأن يكون بناؤه على قاعدة من العقيدة الصحيحة، ينبثق عنها أحكام تعالج شؤون الحياة، وأخلاق تصون هذه المعالجة!

وغير خافٍ أن الوقفات الإيمانية الحازمة الحكيمة التي واجهت بها الجماعة المسلمة تحديات المنافقين في أعقاب غزوة بني المصطلق، والعِثْيرَ الذي أثاره رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول: واضحة الانتماء إلى هذه الآيات وأمثالها في الكتاب العزيز.

أما بعد: فأين عاقبة المنافقين والمنافقات والكفار الذين ديدنهم المكر والمخادعة والمظاهرة على مسيرة الخير والبناء المستنيرة بنور الله، واستنفاد الوسائل التي يمكن أن تتجه ببناء الفرد والمجتمع، وجهة الضلالة والضياع، والخروج على سلطان الهدى والحق!! أين عاقبة هؤلاء من عاقبة المؤمنين والمؤمنات الذين يؤتون ما آتوا من البناء السليم لبنة لبنة وعمارة الأرض على الوجه الذي ينبغي، وهمُّهم مرضاة الله تعالى وحسن العاقبة يوم الدين، والذين تؤرقهم ـ بصدق ـ هموم الأمة، ولا يفتؤون يبذلون من أجل إحكام بناء الفرد والجماعة والأمة، وضمان سلامة هذا البناء واستمراره قوياً معافىً؛ وذلك بردِّ العاديات عنه، وتغذيته بعناصر القوة والنماء.

إنها العاقبة التي تعلن إعلانها من خلال قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وهكذا يهدينا المعلم القرآني إلى أنه كلما كان البناء على العقيدة الصحيحة والعلم والنافع، والتساوق مع سنن الله في الأرض، أكثر إحكاماً وأوفر عناية: كان تحقيق الآمال في جيل يحمل أمانة استئناف البناء بثقة وطمأنينة ـ على قاعدة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها ـ لتحقيق الوجه المبتغى أقرب منالاً إن شاء الله..

والبداية التي كشفت عنها وهدت إليها معالم الكتاب العزيز، والتي أثمرت ما أثمرت من بنية حضارية سليمة: هي البداية التي لا مندوحة للأمة من ترسُّم خطاها بإيمان ووعي بالغين، والسير ـ بمنهجية ـ على هديها، وفاءً للعقيدة وما عاهد المسلم الله عليه، والتزاماً بطريق العلم والعمل والجهاد.

وهنا لا بد للشباب ـ وهم بعد الله أمل الأمة في التغيير إلى ما هو الأفضل ـ أن يذكروا بكثير من التقدير والاعتزاز؛ موقف الشاب النابه الشجاع عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الذي استعلى على العاطفة القريبة، وسما في تصرفاته مع أبيه الضالِّ المضلِّ المفسد، إلى أن يدور مع الحق حيث دار، وكان حب الله ورسوله هو المقدم على محبة غيرهما ولو كان الأب؛ والله ولي التوفيق.

* * *

obeikandl.com

مع البناة .. ومواقف الهدامين

«١٩»

كان فيما أسلفنا من القول تذكير بما هدانا إليه المعلم القرآني من الأهمية البالغة للوقفات المؤمنة الواعية التي اتسم بها سلوك أهل الإيمان بقيادة المصطفى سيد الحكماء والحلماء عليه الصلاة والسلام: من مكر المنافقين وأضاليلهم، وما كان لمواجهة ما يطرحونه من الأذى بغية تعكير الصفو وتفريق الكلمة، من آثار طيبة في الحفاظ على بنية الجماعة قوية متماسكة لا تزلزلها أمثال هذه الترهات، والتي كان منها قالة السوء التي فاه بها رأس المنافقين ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ بعد قول الموالين له بعضهم لبعض: ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾.

وقد هدانا هذا المعلم المبارك إلى أن تلكم الوقفات التي سداها ولحمتها الإيمان وحسن التعامل مع الواقع، في نظرة مرحلية إلى المستقبل مصحوبة بالحيطة والحذر: ذات انتماء واضح إلى ما ذكر الله في سورة التوبة وغيرها من سمات المنهج الأخلاقي الذي يحكم سلوك المؤمنين الذين يحملون عبء البناء على الحق، وتسليح الفرد والجماعة بالوعي الإيماني والوازع الداخلي من ذات الصدور، وهم يرتادون ـ على هدي المنهج الرباني ـ طرائق الخير وتنمية الفضائل وأهلية الاعتصام بالله في السراء والضراء، راجين عظيم المثوبة من الله والظفر بحسن العاقبة يوم الدين.

وليس من مكرور القول التذكير بما جاء في سورة التوبة حول هذه القضية الكبرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ الآية، حيث تلا ذلك ما بشرهم الله به من تحقيق ما يبتغون، والتفضل عليهم بأكثر وأوفر مما يأملون ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن هذه الحقيقة الناصعة تأخذ بأيدينا إلى الكشف عما لبناء الفرد بناءً متكاملاً متوازناً، وإعطائه مفاتيح القدرة على مواجهة التحديات وما لذلك من أثر في سلوك الجماعة، وهي تضع أقدامها على طريق البناء الذي رسم معالمه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو يُلَقّى القرآن ويبينه للناس..

كما تأخذ بأيدينا مرة أخرى ـ وقد تكاثرت ألوان التحديات تحت شتى العناوين والزخارف ـ إلى مزيد من التبصر في موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول إبان تلك الساعات الحرجة التي جرت الإشارة إليها غير مرة، وذلك حيال ما وجه إليه أبوه المنافقين من التواصي بأن لا ينفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقوله: ﴿ وَاللَّهِ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ وذلك في أعقاب غزوة بني المصطلق، إلى كلمات أخر من هنا وهناك تنضح بسوء الأدب والحقد الدفين على رسول الله ﷺ والمسلمين.

ذلك بأنه موقف ـ وقد أشير إليه من قبل ـ يعلِّم الأجيال كيف يكون الفصل بين الحق ـ من حديث هو حق ـ بصرف النظر عمن نواجه فيه، وبين الباطل ـ من حيث هو باطل ـ بصرف النظر عما يكون بيننا وبين حامل لوائه من عداوة أو صلة قربى مهما كانت درجتها! فالمؤمن يوالي من والى الله ورسوله والمؤمنين، والعكس بالعكس! كما لا ينسى أبداً الموضع اللائق لإنسانية الإنسان.

والحاجة إلى أن يأخذ هذا الأمر موقعه المفضَّل في مناهج التربية والتزكية: حاجة ملحة متجددة على صعيد الواقع الذي تجتازه الأمة في مجتمعاتها ـ وبخاصة تلك التي تفتقر إلى الذاتية والبعد عن التقليد الأعمى في تحديد المواقف واتخاذ القرارات المصيرية أو ما يشبهها ـ.

ذلك بأن الشعبة الأولى منه، والتي قوامها استئذان رسول الله ﷺ في قتل أبيه جزاء ضلاله وصده عن سبيل الله، إن كان رسول الله مزمعاً قتله كما نمي إليه هو: تدل ـ أول ما تدل ـ على أن محبة الله ورسوله عنده لا تعدلها بحال من الأحوال

محبة الوالد ـ على وجه العموم ـ فما بالك إذا كان هذا الوالد ضالاً مضلاً لا يني يعمل على أذية رسول الله ﷺ والمسلمين بكل ما يتوافر له من وسائل شيطانية هابطة؟!

عرض هذا العرض على رسول الله ﷺ، وهو يعلم أن رسول الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؛ فأمر الله ورسوله أحق أن يطاع، ولا يحول دون هذه الطاعة شيء من العواطف والرغبات مهما كان شأنه!

أما الشعبة الثانية والتي قوامها وبنيتها نقاء القلب وسلامة المعيار الذي تعكس به الذلة والعزة؛ فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا كذلك عبد الله بن أبي ـ وهو أبوه، وإذاً فلن يدخل المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ ليعلم أن ابنه المعروف بالبر هو أول من يلقنه الدرس المناسب جزاء قوله: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ فهو الأحق بأن يكون الأذل، ورسول الله ﷺ والمؤمنون هم الأعزاء ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ووضع الحق في نصابه من طريق منع الولد البار أباه من دخول المدينة إلا بإذن من رسول الله، كيما يكون الجزاء من جنس العمل: أمر بالغ الأهمية عميق الأثر، وما أعظم موقعه على صعيد القيم التي تحكم التصرف عند هؤلاء النبغة الأبرار من أمثال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول!!

ومما يزيدك قناعة بالحجم الكبير لهذه الوقفة المتميزة في التاريخ: ما جاء في بعض الروايات من أنه ـ رضي الله عنه ـ عندما منع أباه من دخول المدينة قال له: لا تدخلها حتى يأذن رسول الله وتقول: رسول الله هو الأعز وأنا الأذل!!

ولسوف نرى في صفحات قادمات ـ إن شاء الله ـ أن موقف صحابينا رضي الله عنه بشعبتيه العظيمتين ـ مع انتمائه إلى ما دلت عليه الآية المشار إليها في سورة التوبة ـ: هو تطبيق عملي كذلك لما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة من تحديد موضوعي لطبيعة العلاقة التي تربط المؤمن بالآخرين ـ كما أشرت ـ أقرباء كانوا أو غير أقرباء، وأن البرهان العملي على صدق الإيمان، أن يكون حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله مقدماً على أي حب أو ميل مهما كان الشأن، وكانت الظروف.

والحق أن هذا الزاد من الصدق في محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله: طاقة هائلة على صعيد الحركة والبناء؛ لما أن الحوافز الذاتية تكون أوفر نماءً وأكثر فاعلية في الاندفاع إلى العمل والإنجاز ـ مع تجويد العمل ـ في تجاوز للعقبات وانتصار على التحديات، وهذا ما نحن بأمسِّ الحاجة إليه اليومَ وكل يوم، والله حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

obeikandl.com

البناء.. وتواؤم المواقف معه
صحابينا عبد الله بن عبد الله بن أبي ـ والمنافقون

«٢٠»

لا يخفى أن مما يجلو ظلام الحيرة عند الأجيال، ما يكون من مواقف عملية ـ يلمسونها حقاً ـ تترجم الدعاوى إلى حقائق تتحرك على الأرض، إنجازاً وسلوكاً في إطار من المنهجية التي تحكمها معايير دعوة الله سبحانه وتعالى.

أقول هذا تذكيراً بحقيقة تكرر ورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي أن الذين يؤثرون القرابة ومتاع الدنيا حُباً ومخالطة على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله: أوعدوا بما لا تحمد عقباه في الدنيا ويوم الدين.

ولما كان موقف الصحابي المعلِّم عبد الله بن عبد الله بن أُبي قد أعلن إعلانه بأن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين هو المقدَّم أبداً لا غيره، وأن برّه لأبيه لا يعني أن حبَّه يغلب حب الله ورسوله وجهاد في سبيله: فهو ـ رضي الله عنه بلا ريب ـ في نجوة من الوعيد الذي أشرقت به الآية الرابعة والعشرون من سورة «التوبة» وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك، فلنعد إلى متابعة الرحلة التي سعدنا من خلالها باصطحاب هذا النزوع رفيع المستوى الذي يستعلي على كل ما يعوق العطاء المتجدد، إيثاراً لحب الله ورسوله والأخوة الإيمانية والجهاد في سبيل الله، على كل حب ورغبة، وهو ما رأيناه عند صحابينا البطل عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه وأرضاه! والذي يذكِّر دائماً بما افتتحت به سورة «المنافقون» التي أتت على ذكر

تلكما النقيصتين من نقائص المنافقين، إضافة إلى إعراضهم عن أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ ونبَّهت على أن ذلك قد وقع ويقع منهم؛ لأنهم لا يفقهون ولأنهم لا يعلمون، ألا وهو قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

فالغضبة الإيمانية التي غضبها عبد الله بن عبد الله ـ وهو واحد من أولئك البررة الذين تربَّوا في مدرسة النبوة، حيث تناولتهم بالتعليم والتزكية والإعداد المتكامل المتوازن، يد محمد ﷺ الصناع، وشهدوا ـ وهم يسهمون في بناء المجتمع المسلم على أنقاض المجتمع الجاهلي على النحو الذي حدّدت معالمه الرسالة الخاتمة، والذي يمتد إلى تنمية الوجود الذاتي لأمة الإسلام التي شاء الله تبارك وتعالى أن تكون ـ بهذا الإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس ـ شهدوا ما كان من التنزيل، والحكم على الوقائع في ضوء المعايير المستنيرة بنور القرآن..

هذه الغضبة التي كانت من ذلك الشاب المؤمن بربه، المحب لنبيه، الريان قلبه بالهداية والإخلاص، رداً على ما ألقى أبوه ـ وقد الذي باض النفاق في رأسه وقلبه وفرَّخ ـ من الكلمات الآثمات على نهج يتنافى مع أبسط الأعراف الأخلاقية عند العرب حتى قبل الإسلام..هذه الغضبة تنم عن صادق الغيرة على العزة الإيمانية أن يطولها المكر وينال منها المنافقون؛ لما أن الحقيقة النورانية غير هذا ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

كما تكشف عن عميق الانتماء المنوَّر بالفقه في الدين والإخلاص لرب العالمين، إلى القيم التي يفترض أن تقود خطا المسلم، وهو يتعامل مع الحياة.

ناهيك عن أنها في الوقت نفسه: صورة واضحة للتواؤم بين السلوك الذي طبع حركة ذلك الصحابي، مع تلكم المعايير التي حدّدها الكتاب الكريم والسنة المطهرة لطبيعة العلاقة بين المؤمن وبين الآخرين كيف تكون؟!

ذلك بأن اتساق العمل بالعلم والتوافق بين السلوك وبين المعتقد: يقضيان بأن من أكرمه الله بحمل العبء على هدي الرسالة الخاتمة: أن يكون وقافاً ـ بعد سلامة تصوره ـ عند حدود الشارع الحكيم أحكاماً وأخلاقاً وكل ما هو من ذلك بسبب، لا تزاحم خيرتُه ما اختار الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ذلكم صريح قول الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الأحزاب:٣٦] .

ومن تلك المعايير المشار إليها: أن الإيمان هو الفيصل الحقيقي في أمر العلاقة المنوَّه بها، وهو فيصل يثمر ـ فيما يثمر ـ أن الأخوة الحقيقية هي أخوة العقيدة وأن جنسية المؤمن عقيدته في الواقع بلا ريب.

وقد جاء بيان ذلك في سورة «الحجرات» أوضح ما يكون البيان؛ ذلكم قوله جل شأنه في هذه السورة المباركة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات:١٠] .

كما أن الأصل الذي هو أصل الأصول: أن موالاة المؤمن ـ وهو يخوض معركة الحياة بأبعادها وميادينها جميعاً - لله ولرسوله وللمؤمنين.

ففي سورة «المائدة» نقرأ قول الله جل وعز: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

والوعيد على غير هذا شديد جدٌّ شديد، ألا ترى إلى قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وما أوضح من نقع عليه في هذا الباب من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[المائدة:٥٧] .

وفي نهي قاطع أيضاً عن موالاة الكافرين من دون المؤمنين، ترسيخاً لهذه المقولة في حسِّ المؤمن وكيانه، وتوجيهاً صارماً لسلوكه وتصرفه وهو يبني حركة الحياة: نقرأ في الآية الثامنة والعشرين من سورة «آل عمران» قول الله جلت حكمته:﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

إن هذا التواؤم الذي يعلن إعلانه بين هذه المعايير، وبين ما صنعه الصحابي المبجَّل عبد الله بن عبد الله بن أبي يوم انتصر للحق، وبرهن على أن هذا الحق أقوى في نفسه وأغلى من علاقته بأبيه رأس المنافقين.. إن هذا التواؤم عنوان بالغ الدلالة على ما يجب أن تكون عليه هذه القضية الكبرى قضية الولاء والبراء من اهتمام بالغ في مناهج التربية والإعداد على طريق البناء اليوم، في ظروف وملابسات ليس أقلَّها ما صنعه الفكر الغازي لعالم المسلمين في غيبة الحقائق الإسلامية عن كثير من مناهج التثقيف، وما أثير من غبار لبَّس الحقيقة على كثير من أبناء وبنات المسلمين، وعانت الأمة وتعاني من ذلك ما لا يخفى على ذي البصيرة والتبصر.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الموقف الإيماني البناء..
وسلامة المعايير والمنافقون

«٢١»

نفحات المعلم القرآني في سورة «المنافقون» عامة مهمة من دعائم البناء السليم، التي دلَّ عليها الموقف الذي اتخذه الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه من أبيه بعد الذي كان من هذا الأب الضال المضل في أعقاب غزوة بني المصطلق.. فلقد كان ذلك الموقف برهاناً على سلامة الدعائم التي يؤصِّلها النبي عليه الصلاة والسلام لتكون عماد البناء الأمثل الذي يريد له أن يكون ترجماناً عملياً واقعياً للرسالة، كما كان دليلاً واضحاً على صدق الانتماء والاعتزاز بالدين والغيرة على رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يُنال منهم كائناً ما كان هذا النيل؛ فما بالك إذا كان هذا النَّيل يتعلق بأمر جوهري هو معيار العزة والذلة في المدينة بعد الإسلام. فكلمات عبد الله بن أُبي الخاسئة: ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾قوبلت من عبد الله ابنه بأن منع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله، ليعلم من هو الأعز ومن هو الأذل؛ بل أوضح له ـ كما دلت بعض الروايات ـ أنه لن يدخلَها حتى يعلنَ أن رسول الله هو الأعز وأنه هو الأذل، كيما يمحو الحقُّ الباطلَ، ويحجم رأس المنافقين عن أن يطلق مثل هذا الكلام العابث مرة أخرى.

وأكثر من ذلك: أبدى استعداده الجادَّ لإنهاء وجود أبيه من طريق المسلمين، إذا كان رسول الله ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ يريد ذلك.

وهذا الموقف البنَّاء، الذي حمل تلك الغضبة الإيمانية التي كانت ـ بحق ـ غضبة لله وغيرةً على رسوله ورسالته والمؤمنين، كما كانت عنوان السلامة لدعائم البناء المحكم... هذا الموقف العظيم، أفصح عن التواؤم الواضح بين المعايير التي أذن بها الكتاب والسنة في شأن علاقة المؤمن بالآخرين مهما كانت قوية، وبين سلوك عبد

الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه؛ الأمر الذي يكشف عن السر في تلك الطاقات الفاعلة التي انطوى عليها أولئك الرجال من أمثال عبد الله هذا وإخوانه الذين قال الله تعالى فيهم ـ كما جاء في خواتيم سورة «الفتح»: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] ... الآية يوم كان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم، وذاقوا حلاوته أحسن ما يكون التذوق: هو محور الحركة الفاعلة المنضبطة بضوابطه في رحلة البناء، ذلك المحور الذي سما بهم إلى تجاوز ما تمليه الأعراف الجاهلية ومحبةُ القريب ضالاً كان أو مهدياً، ونصره ظالماً كان أو مظلوماً؛ فموالاة المؤمن ما بد أن تكون لله ولرسوله وللمؤمنين، أما موالاة الكافر المبغض لله ولرسوله وللمؤمنين، المعادي للحق الذي نزل به الكتاب: فمرفوضة ـ شكلاً ومضموناً ـ ولو كانت العلاقة مع أقرب الناس نسباً.

وليس من مكرور القول أن نعيد إلى الأذهان ما جرى التنبيه عليه من آيات بينات تحمل بعضاً من تلك المعايير أمراً بها أو نهياً عن ضدها والتي كان منها قوله تعالى في سورة «المائدة» : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران : ٢٨] الآية.

وأنت واجد أن هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ في كتاب الله نصاً أو دلالة أو فحوى، تجمع بين الأمر والبشارة والنذارة، كلٌ في موقعه من البيان، ترغيباً، أو ترهيباً؛ فهي تأمر أمراً جازماً بأن تكون الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، وتبشر المؤمنين بأن ذلك مناط قوتهم وغلبتهم.

وحينما تكون الغلبة للمؤمنين: فذلك يعني انتصار الحق وخذلان الباطل، وأن تأخذ عملية البناء الشامل التي تعطي الفرد والجماعة ـ بعون الله ـ مفاتيح التمكين والنماء: طريقها إلى الوجود العملي الذي لا تفتقد آثاره الطيبة المكينة في ميدان من الميادين.

كما تنهى تلكم الآيات ونظائرها ـ وما أكثرها ـ عن موالاة الكافرين، وتنذر عاقبة ذلك ـ لو وقع ـ بأنها الخسران المبين في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[آل عمران:٢٨] .

والواقع أن سلامة التصور لهذه الحقيقة التي يجب أن تكون الخطوة، الأولى في إدراكها: أن تأخذ مكانها اللائق في ثقافة الفرد والجماعة، وأخذ ذلك مأخذ الجد، وتطويع التحرك على ساحات العمل والبناء لها ـ بحكمة وروية وإدراك للواقع ـ في حالات السلم والحرب.. كل أولئك هو الدرع الواقي بإذن الله مما يوجه إلى المجتمع المسلم من سهام مسمومة في دينه ودنياه، وما يدبر له من مكائد وما يعلن عليه من ألوان من الحروب في الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وكل ما هو من ذلك بسبيل أو سبب.

وعلى صعيد الواقع: يبدو ما تجري الإشارة إليه، ضمانة جذرية ـ إن شاء الله ـ لسلامة المنطلق التي ما بد من أن تواكب ـ بمنهجية وتساوق مع السنَّة الإلهية ـ تباشير اليقظة وما ينشده العاملون البناة الموقنون بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، من توجيه الطاقات البشرية ـ بعد أن تفرج عنها سجون مصادرة الحريات ـ والطاقات العلمية والاقتصادية وجهتها الفاعلة المقرة.

وليس من حاجة إلى التذكير بأن الماضي والحاضر من تاريخ أمتنا يصرخ بالمؤمنين أن يكونوا عند الذي آذنت به معالم الكتاب حباً لله ولرسوله وموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولذلك ما له من آثار لا تخفى على ذي بصيرة، ولكن الكثير من المتصدرين عن هذا غافلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikandl.com

في ضوء المعايير.. البناء والسياج الواقي
موقف.. وموقف

«٢٢»

كان فيما أوردنا من قبل ونحن نخطو على طريق التحرير لمعايير البناء على صعيد الفرد وعلى صعيد الجماعة: قول الله تبارك وتعالى في سورة «آل عمران»: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ وقوله جل شأنه في سورة «المائدة»: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد جرت الإشارة إلى أن هذه الآيات ـ ونظائرها كثيرة في كتاب الله ـ تدل ـ فيما تدل ـ على المعيار الذي يجب أن يحكم علاقة المؤمن بالآخرين، وأن المحور الذي هو رأس الأمر في هذه العلاقة، على مستوى القرابة القريبة أو غيرها: ما توحيه الكلمة الطيبة «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**»؛ لأنها هي جنسية المؤمن، ومقوم وجوده الذاتي، فلا بد أن تخضع المعايير لذلك. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن الالتزام بهذا من أهم مقومات البناء الحقيقي المثمر في حياة الأمة، وأن العدول عن ذلك أو المخالفة عنه في قليل أو كثير: له ماله من انعكاسات غاية في السوء وبعث التفكك والضعف!

والأهمية التي تكمن وراء ترجمة القناعة الإيمانية بهذه القضية بالغة الخطورة تشي بضرورة استذكار موقف الصحابي العلَم ولد رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وهو الموقف الذي لا يرتاب منصف: أنه كان برهاناً غاية في القوة على صدق موالاته لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنه كان جادّاً في بذل ما يقتضيه ذلك من تكاليف

نفسية وعاطفية قبل كل شيء، مهما كان الشأن في ذلك؛ الأمر الذي خرج به ظافراً في معركة الصراع، متميزاً بتواؤم سلوكه ـ رضي الله عنه ـ مع ما حدّدت الآيات البينات من معايير ومنطلقات، وما علم من بيانها النبوي الكريم فقهاً ودراية وتذوقاً.

وهذا الاستذكار لموقف كهذا الموقف ـ كان له الأثر العميق في استمرار وحدة الصف، والحيلولة دون أن يأخذ المكر الماكر من قبل أبرز المنافقين طريقه ـ لا سمح الله ـ إلى بعض القلوب، ما بدٌّ أن تذكر معه ما سبقت الإشارة إليه من أن سلامة التصور لتلكم المعايير التي أفصح عنها وحدَّدها الكتاب الكريم على صورة غاية في الوضوح، حتى باتت من المعلوم من الدين بالضرورة، وبينتها السنة المطهرة قولاً وفعلاً، في شأن علاقة المؤمنين حملَة القرآن وبيانه بغيرهم، والأساس الذي تقوم عليه قضية الولاء والبراء؛ كل أولئك هو الضمانة الواقية ـ بإذن الله ـ مما يوجه إلى المجتمع المسلم، والأمة المسلمة من عوامل الأذى، أن لو صحب التصرف ما ينبغي من الحكمة المصحوبة بتبين الأمور، ومعرفة ما يدور حول الإسلام والمسلمين على الصعيدين الإقليمي والدولي، والأسباب الحاملة على ذلك!!

كما أنه السياج المنيع دون أن يُنال من مسيرة البناء التي تظللها راية التوحيد، ويجنَّد لها ما يجنَّد من الإمكانات البشرية والعلمية والاقتصادية وما إلى ذلك.

ولعل مما يزيد هذا الأمر الجلل توكيداً ـ وموقف الصحابي مدار العبرة من أبيه رأس المنافقين ومواقف إخوانه من الصحابة بحسبان ـ: ما دلَّ عليه قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[المائدة: ٥٦].

فالكلمات الهاديات هنا: تنطق بأن موالاة الله ورسوله والذين آمنوا، هي الطريق التي تسلم المؤمنين إلى الغلبة والانتصار في معركة الحق والباطل، على أعداء الله والإنسان.

كما تدل بفحواها على أن الصراع بين الحق والباطل واقع لا محالة، والابتلاء في جندية المؤمن على ساحة هذا الصراع: صنو الإيمان، ويحتاج إلى صبر ومصابرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ألم تر إلى قوله تعالى في فواتح سورة «العنكبوت» ـ وهي سورة مكية ـ ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .وقوله في سورة «آل عمران» إحدى الزهراوين المدنية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

فإذا أراد المؤمنون الغلبة والتمكين قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا؛ فليكن في مقدمة الأخذ بأسباب النصر ـ وهي كثيرة وميزة ـ أن تكون موالاتهم ـ على الأصعدة كافة ـ لله ولرسوله وللمؤمنين.

وعندما يكونون كذلك: فهُم مع العقيدة والعلم والعمل، وقَدْر إنسانية الإنسان قدرها، والأخذ بأسباب القوة المستطاعة أخذاً لا ينأى عن معرفة الواقع كما هو، ولا ينقصه التساوق مع سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدَّل: كل أولئك مع التحرر الذاتي؛ لأنه فرض لازم لا محيد عنه؛ ذلك بأن الحفاظ على الموقف الذاتي الذي يثمر القرار المستقل الحكيم في الموالاة والمعاداة: لا بدَّ له من ذلك كله.

ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى به أمراً جازماً فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال:٦٠]

والملاحظ أن الله لم يرتب النصر على الإعداد؛ لأن النصر يمكن أن يكون في معركة، ويتخلف في غيرها لدواع وأسباب، ولكن الديمومة يجب أن تكون لحال من القوة عند المسلمين تجعل العدو يحسب ألف حساب قبل أن يُقدم على ما يريد الإقدام عليه في ميدان الصراع مع الحق وأهله، وقد يغني ذلك عن المواجهة القتالية؛ لأن قوة المسلمين ـ بشعبها المتعددة ـ تحقق ما يجب تحقيقه بعون الله! والأصل هو الدعوة، وإنما شرع الجهاد من أجلها ومن أجل الذود عن حياض الإسلام وكيان المسلمين في مواجهة التحديات للهدف الكبير وهو أن تكون كلمة الله هي العليا. وفي ذلك الخير كل الخير لا للمسلمين فحسب، بل للإنسانية جمعاء.

ثم لا بد من نظرة متأنية متدبرة لسياق الآيات وسباقها في الموضوع؛ فمثلاً نجد أن قوله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، قد سبق قبل بضع آيات بقوله جل شأنه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ والسياج الواقي لوجوده العملي، وأن تكون له الكلمة الحاكمة في كل جانب من جوانب الحياة، كيما يصوغها على الهدى وما فيه مصلحة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم...

أجل: السياج الواقي لذلك: أن يستقيم أبناؤه على الطريقة زيادة في الإيمان، وعملاً بالعلم، ومعرفة بحقائق الأمور هنا وهناك، ناهيك عن أصل الأصول وهو الالتزام بمعايير الكتاب والسنة وضوابطهما في تحركهم وممارستهم لشؤون الحياة، وهم يمهدون لأنفسهم ولأمتهم وللبشرية كلها، طرائق الخير وحماية الإنسان من العبودية للإنسان، تلك الطرائق الكفيلة ـ بإذن الله ـ بإقامة البنية الحضارية المتكاملة المتوازنة اللائقة بالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلا.

وضمان الاستمرار تجدُّداً ونماءً مثمراً قائم، إذا ما استمر العطاء بعقول متفتحة على هداية الإسلام، وقلوب موصولة بالله، وأخذ بالأسباب وفق سنن الله، وعدم الغفلة عن أن بيده ـ سبحانه ـ مقاليد السماوات والأرض، وأنه ينصر من ينصره وهو القوي العزيز.